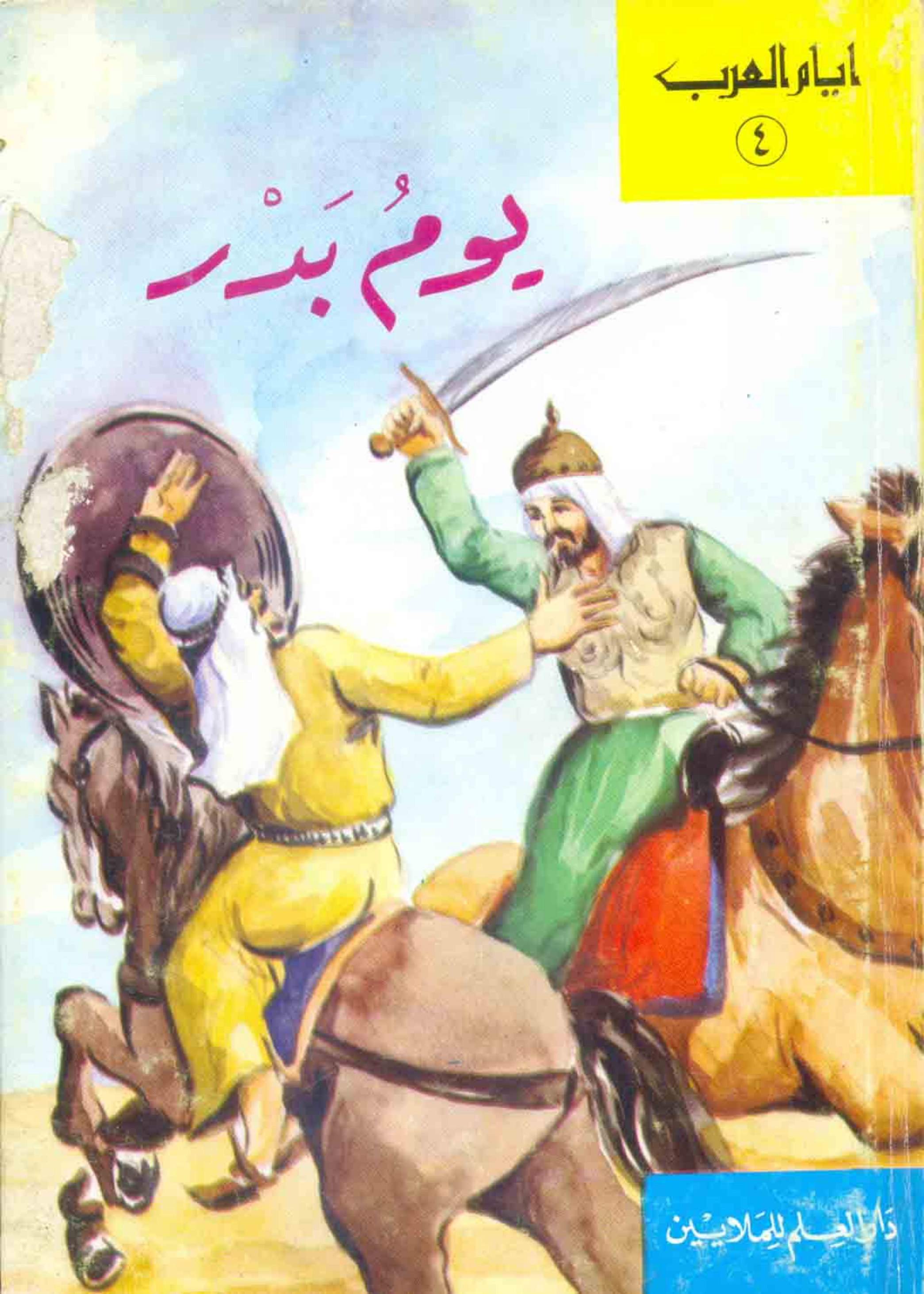


ايام العرب
٤
يَومُ بَدْر
دار العلم للملايين

ايام العرب

(٤)



يوم بدر

بقلم

خليل هنداوي

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى ١٩٧٤

الطبعة الخامسة

حزيران (يونيو) ١٩٨٦

قافِلَةُ قُرَيْش

كانَ النَّبِيُّ مَعَ جَماعَةٍ مِنْ كِبارِ الصَّحابَةِ ، يَتَحَدَّثونَ عَمَّا يَكونُ مِنْ أَمْرِ قُرَيْشٍ ، بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ هُوَ وَمَنْ هاجَرَ مَعَهُ في المَدينَةِ . وَإِذا بِرَجُلٍ يَقْتَرِبُ مِنْهُ ، وَيَقولُ :

ــ إِنِّي رَأَيْتُ أَبا سُفْيانَ مُقْبِلاً مِن الشَّامِ ، في قافِلَةٍ عَظيمَةٍ لِقُرَيْشٍ ، فيها أَمْوالٌ لِقُرَيْشٍ ، وَتِجارَةٌ مِنْ تِجاراتِهِمْ ، يَحْميها ثَلاثونَ رَجُلاً ، أَوْ أَرْبَعون .

فاهْتَمَّ النَّبِيُّ بالخَبَرِ ، وَسَأَلَ أَصحابَهُ :

ــ ماذا نَصْنَعُ بالقافِلَة ؟

أَشارَ بَعْضُهم بالوُثوبِ عَلى القافِلَةِ ، وامْتِلاكِ

مـا فيها ، لِأَنَّ ذٰلِكَ يُضعِفُ مِنْ شَأْنِ الْعَدُوِّ ، وَيُقَوِّي مِنْ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ في دارِ غُرْبَتِهِم .
وأَشارَ آخَرونَ بِعَدَمِ التَّعَرُّضِ لِلْقافِلَةِ ، لِأَنَّ ذٰلِكَ مَعْناهُ إِعْلانُ الحَرْبِ ، والْمُسْلِمونَ لَيْسوا مُسْتَعِدِّينَ لَها .

وَلٰكِنَّ النَّبِيَّ أَجابَ :

ـ هذِهِ قافِلَةُ قُرَيْشٍ ، فيهـا أَمْوالُهُمْ وَتِجارَتُهُم الَّتي يَسْتَمِدُّونَ مِنْها حَياتَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ ، لا يَقْدِرونَ عَلى الحياةِ بِدونِها . والْعَرَبُ قَدْ أَمَّنَتْهُمْ على تِجارَتِهِمْ حَيْثُ كانَتْ ، احْتِراماً لِهذِهِ القبيلَةِ الَّتي جاوَرتْ بَيْتَ اللهِ الحَرامَ ، فَكانَ لها حُسْنُ الجوار ، وَبَرَكَةُ الدَّارِ . وإِنَّ قُرَيْشاً فَقَدَتِ اليَوْمَ هذِهِ المزِيَّةَ ، لِأَنّها اعْتَدَتْ على رِجالٍ منها ، أَرادوا أَنْ يَعْبُدوا

اللهَ وَحْدَهُ ، وَعَذَّبَتْهُمْ ، وشَرَّدَتْهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ ، واسْتَوْلَتْ على أَمْوالِهِم ، لِذٰلِكَ وَجبَ عَلَيْنا أَنْ نَخْرُجَ إلى هذهِ القافِلَةِ ، لَعَلَّ اللهَ يُساعِدُنا على امتِلاكِها غَصْباً ، فيَكونَ ذٰلِكَ أَوَّلَ ضَرْبَةٍ لِأَعْدائِنا ، وأَوَّلَ نَصْرٍ لِدَعْوَتِنا ، والمالُ عَصَبُ الحَرْبِ .

وَما كانَ لِأَصْحابِ النَّبيِّ ، بَعْدَما تَبَيَّنوا رَأْيَهُ إلّا أَن يُوافِقوهُ على ما ارْتَأَى . وبَعْدَ قَليلٍ كانوا يستعِدُّونَ لِلْخُروجِ مَعَ النَّبيِّ إلى لِقاءِ القافِلَةِ في الطَّريقِ .

كانتِ القافِلَةُ تَتَهادى آمِنَةً ، مُطْمَئِنَّةً في طُرُقِ الصَّحْراء ، وتَتَعالى أَصْواتُ أَجراسِها التي تُؤْنِسُ أَصحابَها في تِلْكَ القِفارِ المهجورَةِ ، حتَّى إذا اقْتَرَبَتْ

من أَرضِ الحجازِ ، بَدَأَ الخَوْفُ يَعْصِفُ بأَبي سُفْيانَ زَعيمِ القافِلَةِ .

وَلٰكِنْ ، مَاذا يُخيفُ أَبا سُفْيَانَ ، وقَدْ أَصْبَحَتْ قَافِلَتُهُ عَلى مَسافَةٍ قَصيرَةٍ مِنْ مَكَّةَ ؟

إِنَّهُ يَخَافُ أَنْ يَكُونَ ، هُناكَ ، كَمينٌ لِلْمُسْلِمينَ يَنْقَضُّ عَلى قَافِلَتِهِ في الطَّريقِ ، لِذٰلِكَ بَدَأَ يَسأَلُ مَنْ لَقِيَ مِنَ الرُّكْبانِ ، تَخَوُّفاً عَلى قَافِلَتِهِ ، حتّى فَاجأَهُ مُخْبِرٌ يَقُولُ لَهُ :

ـــ إِحْذَرْ يَا أَبَا سُفْيانَ ! إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ اسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ لِقَافِلَتِكَ .

لَمْ يَكُنْ وَقْعُ الْخَبَرِ عَلَيْهِ مُفَاجِئاً ، لأَنَّهُ كانَ يَتَوَقَّعُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنْ ماذا يَصْنَعُ ؟ وَكَيْفَ يَنْجُو

سَالِماً بِقافِلَتِهِ ؟

دَعا أَبُو سُفْيانَ رَجُــلاً شَدِيداً مِنْ رِجالِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

— إِنَّ الخَطَرَ مُحْدِقٌ بِنا ، وَإِذا اسْتَطَاعَ هَؤُلاءِ المُسْلِمُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْنَا قَضَوْا عَلَيْنا ، وَمَلَكُوا القَافِلَةَ ، فَأَسْرِعْ وَحْدَكَ إِلى مَكَّةَ ، وادْعُ قُرَيْشاً إِلى إِنْ يَهُبُّوا لِاسْتِنْقَاذِ أَمْوَالِهِمْ ، وَقُلْ لَهُمْ : إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ رَبَطَ لِلْقَافِلَةِ مَعَ أَصْحابِهِ . أَسْرِعْ ! أَسْرِعْ !

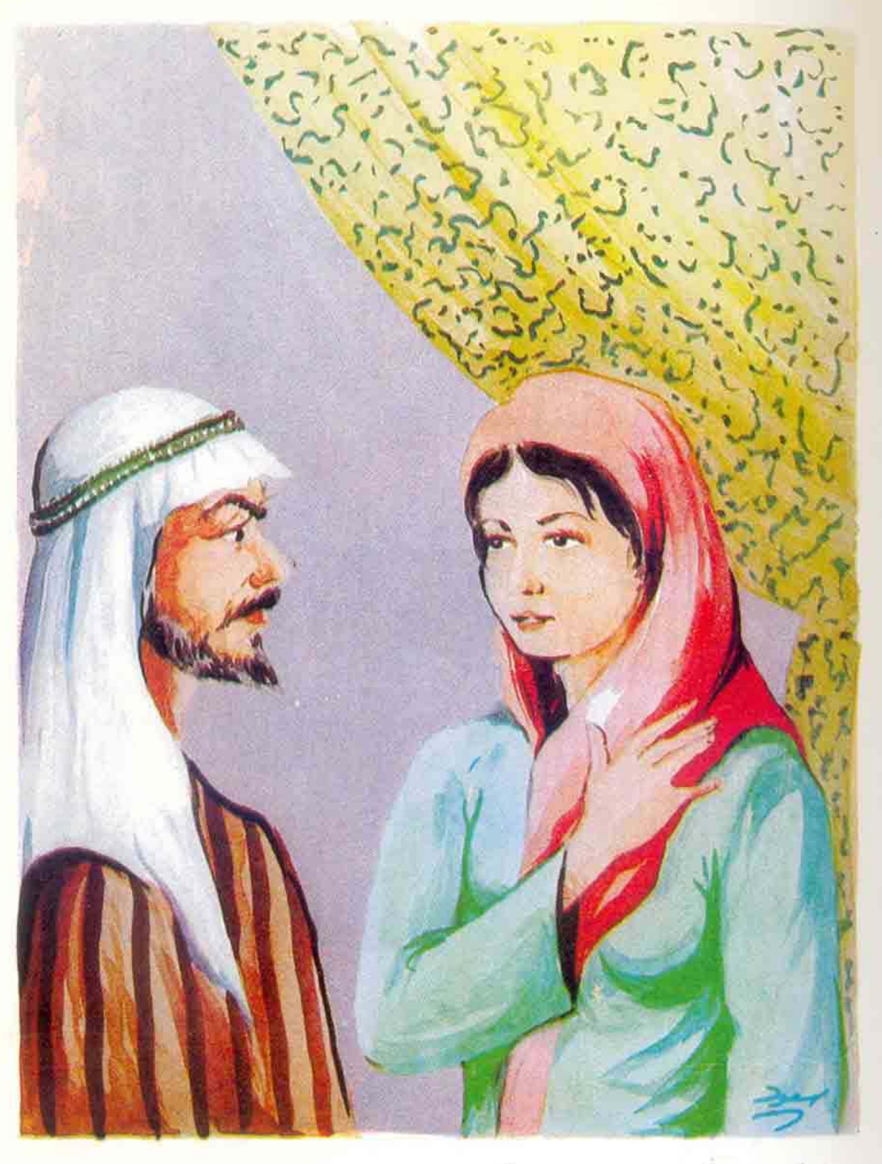
وامْتَطَى الرَّجُلُ جَوادَهُ ، وَسَارَ بِهِ خَبَباً ، نَحْوَ مَكَّةَ ، لِيُبَلِّغَ قُرَيْشاً رِسَالَةَ أَبِي سُفْيانَ .

رُؤْيَا فَظِيْعَـة

كانَتْ مَكَّةُ آمِنَةً ، تَنْتَظِرُ بِهُدُوءٍ عَوْدَةَ قَافِلَتِها ، حَامِلَةً الأَمْوَالَ ، والأَرزَاقَ المَوْفُورَةَ ، لَا يُزْعِجُها شَيْءٌ . وَكانَتْ عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِب نائِمَةً ، هانِئَةً ، وإذا بِها تَهُبُّ مِنْ نَوْمِها خَائِفَةً ، مِنْ رُؤْيا فَظِيعَةٍ أَفزَعَتْها ، وَحاوَلَتْ أَنْ تَعُودَ إلى نَوْمِها ، فلَمْ تَستَطِعْ ، لِأَنَّ الحُلْمَ المُخِيفَ لَا يَزالُ على عَيْنَيْها ، فبَعَثَتْ إلى أَخيها العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِب ، لَعَلَّهُ يُساعِدُها على مَخَاوِفِها .

أَقْبَلَ العَبّاسُ على عَجَلٍ ، وَهوَ يَشْعُرُ بِأَنَّ شَرًّا يُحيطُ بِأُخْتِه ، فسأَلَها :

ـ مَالَكِ يا عَاتِكَةُ ؟ إنِّي أَرَاكِ بِخَيْرٍ . فَلِمَاذا



— إِنَّهُ حُلُمٌ لَيْسَ كَالأَحْلام ! (ص ٩) .

دَعَوْتِني إِلَيْكِ فِي هَـذا اللَّيْلِ المُظْلِمِ ؟

فَقَالَتْ عَاتِكَةُ :

ــ لِأَمرٍ عَظِيمٍ دعوتُكَ يا أَخِي ! إِنَّـهُ حُلمٌ رَهِيبٌ مَنَعَ عَنّي النَّوْمَ .

ــ حُلمٌ رَهِيبٌ ؟ وَلٰكِنْ ... كَمْ تَكْذِبُ الأَحْلَامُ !

ــ إِنه حُلمٌ لَيْسَ كالأَحلامِ . أَقلَقَنِي وأَفزَعَني .

وَتَخَوَّفتُ أَنْ يَدْخلَ على قَومِنَا مِنْهُ شَرٌّ وَمُصِيبَةٌ .

ــ وَمَاذا رَأَيتِ يا عاتِكَةُ ؟

أَخَذَتْ عاتِكَةُ بِيَدِ أَخِيها العَبَاس ، وَقَالَتْ لَهُ :

ــ اسمَعْ حَدِيثي يا اخِي ! رأَيْتُ راكِباً على بَعِيرٍ لَهُ حَتَّى وَقَفَ بِبَطْحَاءِ مَكَّةَ ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : إِنفِرُوا يا آلَ مَكَّةَ ، واسْتَعِدّوا لِلْقتَالِ

بَعْدَ ثَلاث ! فَإذا بِالنَّاسِ قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ والنَّاسُ يَتْبَعونَهُ ، وَبَيْنَما هُمْ حوْلَهُ ، ارْتَفَعَ بِـهِ بَعِيْرُهُ عَلى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ صَرخَ بِأعْلى صَوْتِه : يا آلَ مَكَّةَ ! إنْفِرُوا واسْتَعِدُّوا لِلْقَتْلِ بَعْدَ ثَلاث ! ثُمَّ رَكَضَ بِهِ بَعِيْرُهُ عَلى رَأْس جَبَلِ أَبِي قُبَيْس ، فَصَرخَ بِمِثْلِ الصَّرْخَةِ الأُولى ، ثُمَّ أَخَذَ صَخْرَةً ، فَأَرْسَلَها ، فأَقْبَلَتْ تَتَدَحْرَجُ حَتَّى إذا صَارَتْ بِأَسْفَلِ الجَبَلِ تَفَتَّتَتْ ، فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ مَكَّةَ ، وَلاَ دارٌ مِنْ دُورِهَا إلّا دَخَلَتْها مِنَ الصَخْرَةِ قِطْعَةٌ .

إِرتَعَشَ الْعَبَّاسُ لِسَماعِ هٰذِهِ الرُّؤْيا ، والْتَفَتَ إلى عَاتِكَةَ ، يَقُولُ :

ـــ حَقّاً ، إنَّ هٰذِهِ رُؤيَا فَظِيعَةٌ ... وَلٰكِنْ ، أكْتُمِيْهَا ، وَلَا تَذْكُرِيها لِأَحَدٍ .

ذُيوعُ الرُؤيَــا

خَرَجَ العَبَّاسُ مُضْطَرِباً ، فَلَقِيَ أَحَــدَ رُؤَساءِ قُرَيْشٍ ، وكانَ لَهُ صَدِيقاً ، فَاسْتَوْقَفَهُ ، وَرَاحَ يَقُصُّ عَلَيْهِ رُؤيَا أُخْتِهِ عاتِكَةَ . وَلَمَّا انتهى طَلَبَ إليه أَنْ يَكْتُمَها وَلَا يَذْكُرَهــا لأَحَدٍ . لكِنَّ صَدِيقَهُ لَمْ يَقْوَ على كِتْمانِها ، فَذَكَرَهَا لِأَبيه ، فإذا بِالرُؤْيَا تُصْبِحُ حَدِيثَ مَكَّةَ . وَبَيْنَما كَانَ العَبَّاسُ يَطوفُ بِالبيْتِ ، سَمِـعَ أَبا جَهْلٍ وَفِئَةً من قُرَيْشٍ يَتَحَدَّثُون بِرُؤْيـا عاتِكَةَ . وَإذا بِأَبِي جَهْلٍ يُنادِيه :

ـ يا عَبَّاسُ ! إذَا فرَغْتَ مِنْ طَوافِكَ فَأقْبِلْ إلَيْنا !

وَلَمَّا فرغَ العَبَّاسُ أقْبلَ إليهم ، حَتَّى جلَسَ مَعَهُمْ ، فقالَ لَهُ أبو جَهْلٍ هازِئاً :

ـ يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِب ! لَقَدْ قامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ ، وَلٰكِنْ مَتى حدَثَتْ فِيكُمْ هٰذِهِ النَّبِيَّةُ الجَدِيدَةُ ؟

فقالَ العَبَّاسُ :

ـ وَمَا ذاكَ ؟

قالَ أبو جَهْلٍ :

ـ ما هُوَ شَأْنُ الرُّؤْيا الَّتي رَأَتْها أُخْتُكَ عاتِكَةُ ؟

تَجاهَلَ العبَّاسُ الأَمْرَ ، وَقالَ :

ـ وَماذا رَأَتْ ؟

قالَ أبو جَهْلٍ ، وَهُوَ يَهتَزُّ غَضَباً :

ـ أَمَا كَفَاكُمْ أَنْ يَتَنَبَّأَ رِجالُكُمْ حَتَّى تَتَنَبَّأَ نِساؤُكُمْ ؟ لَقَدْ زَعَمتْ أُخْتُكَ في رُؤْياها أَنَّها سَمِعَتْ قائِلاً يَقولُ : يا آلَ مَكَّةَ ! اسْتَعِدُّوا لِلْقَتْلِ بَعْدَ ثَلاثٍ ، وَنَحْنُ سَنَنْتَظِرُ هذا المَوْعِد . فَإِنْ يَكُنْ ما قالَتْ حَقًّا فَسَيَكُون . وَإِنْ جَاءَ المَوْعِدُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِمّا زَعَمتْ شَيْءٌ ، فَإِنَّنا سَنَكْتُبُ كِتاباً عَلَيْكُمْ أَنَّكُم أَكْذَبُ أَهْلِ بَيْتٍ في العَرَب .

فَأَجابَ العَبَّاسُ بِهُدُوء :

ـ لا عِلْمَ لي بِهَذا .

وَتَفَرَّقُوا ، وَالْعَبَّاسُ يَحِزُّ نَفْسَهُ الأَلَمُ مِمّا كَان .

تَفْسِيرُ الرُّؤْيا

كانَ اليَوْمُ الثَالِثُ ، مِنْ رُؤْيا عَاتِكَةَ ، فَخَرَجَ العَبَّاسُ إلى المَسْجِدِ ، وَدَخَلَهُ ، وَهْوَ مُغْضَبٌ ، يُرِيدُ أَبا جَهْلٍ لِيُوَبِّخَهُ ، فرآهُ في صَدْرِ المَسْجِدِ ، وَمَشَى نَحْوَهُ ، فَإذا بِأَبِي جَهْلٍ خارِجاً نَحْوَ الْبَابِ ، وَهْوَ يُسْرِعُ . فقَالَ العَبَّاسُ فِي نَفْسِهِ :

— مَالَهُ — لَعَنَهُ اللهُ ! أَكُلُّ هٰذا خَوفاً مِنّي ؟

فَإذا بِأَبِي جَهْلٍ قَدْ سَمِعَ مَا لَمْ يَسْمَعْهُ العَبَّاسُ ، سَمِعَ صَوْتَ رَجُلٍ ، وَهُوَ يَصْرُخُ بِبَطْنِ الْوَادِي ، وَاقِفاً عَلى بَعِيْرِهِ :

— يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! الْقَافِلَةَ ، الْقَافِلَةَ ! أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبي سُفْيانَ ، قَدْ عَرَضَ لَها مُحَمَّدٌ فِي أَصْحابِهِ .

لا أَرَى أَن تُدْرِكُوها . أَلْغَوْثَ ! الْغَوْثَ ! والنَّجْدَةَ ! النَّجْدَةَ !

عِنْدَ ذٰلِكَ ، وَقَفَ الْعَبَّاسُ مُضْطَرِباً لِهَذا النَّبَأِ ، وَرَدَّدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ :

ــ أَهذا هُوَ تَفْسِيرُ رُؤْيا عَاتِكَةَ ؟

وَقَعَدَ الْعَبَّاسُ عَنْ مُلاحَقَةِ أَبِي جَهْلٍ ، بَعْدَ أَنْ شَغَلَهُما هٰذا الْخَبَرُ العَظِيمُ . وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى تَجَهَّزَ النَّاسُ سِراعاً ، وَهُمْ يُرَدِّدُون :

ــ هَــل يَظُنُّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَنْ تَكُونَ هٰذِهِ القَافِلَةُ مِنْ نَصِيبِهِم ؟ لَيَعْلَمُنَّ غيرَ ذٰلِكَ .

وَباتَ رِجالُ قُرَيْش لَيْلَتَهُمْ ساهِرِينَ . مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِدُّ لِلْخُروجِ إِلى الْقِتَــالِ ، وَمِنْهُمْ مَن يَبْعَثُ

مَكانَهُ رَجُلاً يَنُوبُ عَنْهُ في الْقِتَالِ .

وَكانَ مِمَّنْ أرادَ الْبَقاءَ في مَكَّةَ شَيْخٌ جَلِيلٌ مِنْ أَسْيادِ قُرَيْشَ ، فَأَتاهُ فَتى مِنَ الْفِتْيانِ ، وَهْوَ جالِسٌ في الْمَسْجِدِ بَيْنَ قَومِهِ ، فَأَخْرَجَ مِجْمَرَةً فِيهـا نارٌ وَبَخورٌ ، حَتَّى وَضَعَها بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَال :

ــ يا شَيْخُ ! تَطَيَّبْ بِرائِحَةِ هٰذا الْبَخُورِ ، فَإِنَّما أَنْتَ امْرَأَةٌ مِنَ النِّساءِ ، لا رَجُلٌ بَيْنَ الرِّجالِ .

فانْتَفَضَ الشَّيْخُ في مَكانِـهِ ، وَقالَ يَتَحَدَّى هٰذهِ الإِهانَة :

ــ قَبَّحكَ اللهُ ! وَقَبَّحَ مـا جِئْتَ بِهِ ! وَاللهِ ، لَنْ تَرانِي إلّا فِي طَلِيعَةِ الْمُقاتِلِينَ .

وَفي الْيَومِ الثَّاني خَرَجَ مَعَ النَّاسِ إلى الْقِتالِ .

خُرُوجُ الرَّسُولِ

خَرَجَ الرَّسولُ ، فِيْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، فِي ثَلاثِمائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ أَصْحابِهِ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنصارِ ، حَتَّى إِذا ابْتَعَدُوا قَلِيلاً عَنْ مَوَاضِعِهِم أَتاهُ الخَبَرُ بِأَنَّ رِجالَ قُرَيْشٍ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ ، لِيَحْمُوا قافِلَتَهُمْ ، فاسْتَشارَ الرَّسُولُ النَّاسَ ، لِيكْشِفَ نِيَّتَهُمْ ، وَيَخْتَبِرَ عزيمَتَهُمْ ، فَقامَ أَحَدُ الأَبْطالِ ، وَقالَ :

ـ يا رَسولَ اللهِ ! إِمْضِ لِمَا أَمرَكَ اللهُ بِـهِ ، فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاللهِ ، لَاْ نَقولُ لَكَ كَما قالَتْ بَنو إِسْرائيلَ لِموسىٰ : إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا ، إِنَّا هَا هُنا قاعِدون ... وَلٰكِنَّا نَقولُ : إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا ، إِنَّا مَعَكُما مُقاتِلون .

فوَالَّذي بَعثَكَ بِالْحَقِّ ، لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلى آخِرِ الدُّنيا لَجالدْنا مَعكَ حتَّى نبْلُغَه .

فقَالَ الرَّسولُ خيْراً ، ودَعا لَهُ بِخَيْرٍ . وَسَرَّهُ أَنْ يَرى أَصْحابَهُ الْمُهاجِرينَ بِهٰذِهِ الْعَزِيمَةِ . ولٰكنَّهُ يُريدُ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَةَ الأَنْصَارِ ، فَكَرَّر قوْلَهُ :

ــ أَشيرُوا عَليَّ أَيُّها النَّاسُ !

وكَانَ يُريدُ مِنْ وَراءِ ذٰلِكَ ، مَعْرِفَةَ رَأْيِ الأَنْصارِ الّذين بايَعوهُ وتَعَهَّدوا لَهُ بِالحِمايَةِ ، مـــا دامَ في مَدينَتِهِمْ ، فَهْوَ يَتَخوَّفُ أَلَّا يَنْصُروهُ في بِلَادٍ غَيْرِ بِلَادِهِمْ . ولَمَّا سَمِعَ الأَنْصارُ ذٰلِكَ نَهَضَ زَعِيمُهُمْ وقالَ لَهُ :

ــ واللهِ ، لَكَأَنَّكَ تُريدُنا يا رَسولَ اللهِ !

قالَ النَّبيُّ :

ـ أَجَلْ ، أُريدُ أَنْ أَعرِفَ رَأْيَكُمْ ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلى شَيْءٍ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ تعاهَدْنا عَلَيْهِ .

فَأَجابَ زَعِيمُ الأَنْصارِ :

ـ قَدْ آمَنَّا بِكَ يا رَسولَ اللهِ ، وَصَدَّقْناكَ ، وَشَهِدْنا أَنَّ ما جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْناكَ عَلى ذٰلِكَ عُهودَنا وَمَواثِيقَنا عَلى السَّمْعِ والطَّاعَةِ . فامْضِ بِنا ، يا رَسولَ اللهِ ، لِما أَردْتَ ، فَنَحْنُ مَعَكَ ، فوالّذي بَعَثَكَ بالحقِّ لو اسْتَعْرَضْتَ بِنا هٰذا الْبَحْرَ وَخُضْتَهُ لَخُضْناهُ مَعَكَ . ما يَتَخَلَّفُ مِنَّا رَجُلٌ واحِدٌ ، إِنَّا لَصابِرونَ عِنْدَ الْحَرْبِ ،

صادِقونَ عِنْد اللِّقاءِ . وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُرِيَكَ مِنَّــا ما تُسَرُّ بِهِ . فَسِرْ بِنا على بَرَكَةِ اللهِ !

فسُرَّ الرَّسولُ بِكَلامِ الأَنْصارِ ، وَنَشَّطَهُ ذٰلِكَ ، ثُمَّ قالَ :

ــ سيروا ، أَذاً ، على بَرَكَةِ اللهِ ، وأَبْشِروا ! فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَني بالنَّصْرِ . واللهِ ، لَكَأَنّي أَنْظُرُ إِلى مَصارِعِ الْقَومِ بَيْنَ يَدَيَّ .

وَهكَذا اسْتَطاعَ الرَّسُولُ بِحِكْمَتِهِ ، وَحُسْنِ اسْتِشارَتِهِ أنْ يُوَحِّدَ بَيْنَ صُفوفِ الْمُهاجِرينَ والأَنْصارِ الَّذينَ تَجْمَعُهُمْ رسالَةٌ خالدةٌ ، وقَضِيَّةٌ واحدةٌ .

مِمَّنْ أَنْتُمــا ؟

ارْتَحَلَ الرَّسولُ مَعَ أَصْحابِهِ ، وَما زالَ حَتَّى

نَزَلوا قَريباً مِنْ بَدْرٍ ، فَرَكِبَ هُوَ وَرَجُلٌ مِنْ أَصْحابِهِ ، حَتَّى وَقَفَ على شَيْخٍ مِنَ الْعَرَبِ ، فَسأَلَهُ الرَّسولُ عَنْ قُرَيْشٍ ، وَعَنْ مُحَمَّدٍ وأَصْحابِهِ ، وَما بَلَغَهُ عَنْهُمْ ، فقالَ الشَّيْخُ :

ـــ لا أُخبِرُكُما حَتَّى تُخْبِراني مِمَّنْ أَنْتُما ؟

فَقالَ لَهُ الرَّسولُ :

ـــ إذا أَخبَرْتَنا أَخبَرْناكَ .

فَقالَ الشَّيْخُ :

ـــ أَوَ تَفْعَلانِ إذا فَعَلْتُ ؟

ـــ نَعَمْ .

ـــ بَلَغَني أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحابَهُ خَرَجُوا في أَوائِلِ هٰذا الشَّهرِ . فَإِنْ كانَ صَدَقَني الَّذي أَخبَرَني فَهُمْ

الْيَوْمَ بِمَكانِ بَدْرٍ . وَبَلَغَني أَنَّ قُرَيْشاً خَرَجوا بَعْدَ لِيالٍ مِنه ، فَإِنْ كانَ الَّذي حَدَّثَني صادِقاً ، فَهُمُ الْيَوْمَ قَريبٌ مِنْ بَدْرٍ .

وَلَمّا فَرَغَ مِنْ خَبَرِهِ قالَ لَهُما :

ـــ وَالآنَ ! أَخْبِراني مِمَّنْ أَنْتُما ؟

فَقالَ الرَّسولُ :

ـــ نَحْنُ مِنْ ماءِ عَيْنٍ هُناكَ .

ـــ وَلٰكِنْ ..: لا عَيْنَ ماءٍ هُناكَ ، أَمِنْ مِياهِ الْعِراقِ أَنْتُما ؟

وَرَجَعَ الرَّسولُ إِلى أَصْحابِهِ ، وَهُوَ يَعْجَبُ مِنْ فِراسَةِ هٰذا الشَّيْخِ .

التِماسُ الأَخْبارِ

لَمَّا أَمسَى الرَّسولُ بَعَثَ نَفَراً مِنْ أَصحابِهِ إلى بَدْرٍ يَلْتَمِسونَ لهُ أَخبَارَ الْعَدُوِّ ، فوَجَدوا رَجُلَيْنِ يَسْتَقِيانِ الْماءَ ، فأَتَوْهُ بِهِما ، وكانَ يُصَلِّي ، فسأَلُوهُما ، فقالا :

ــ نَحْنُ سُقاةٌ لِقُرَيْشٍ ، بَعَثُونا لِنَسْقِيَهِمْ مِنَ الْماءِ .

فأَنكَرَ الْقَوْمُ خبَرَهُما ، فضَرَبوهُما فلَمَّا أَوْجَعوهُما قالا :

ــ نَحْنُ لِأَبي سُفيانَ .

فتَرَكوهُما ، فلَمَّا انتَهى الرَّسولُ مِنْ صَلاتِهِ قالَ لِأَصحابِهِ :

ــ إذا صَدَقا كُمْ ضَرَبْتُموهُمـا ، وإذا كَذَباكُمْ تَرَكْتُموهُما ... لَقَدْ صَدَقا ، وَاللهِ ، فِيما قالا . إنَّهما لِقُرَيشٍ ... والآنَ ، أَخبِراني أيْنَ قُرَيْش ؟

فَقالا :

ــ هُمْ وراءَ هٰذِهِ الرَّابِيَة .

كَمْ عَدَدُ الْقَوْمِ ؟

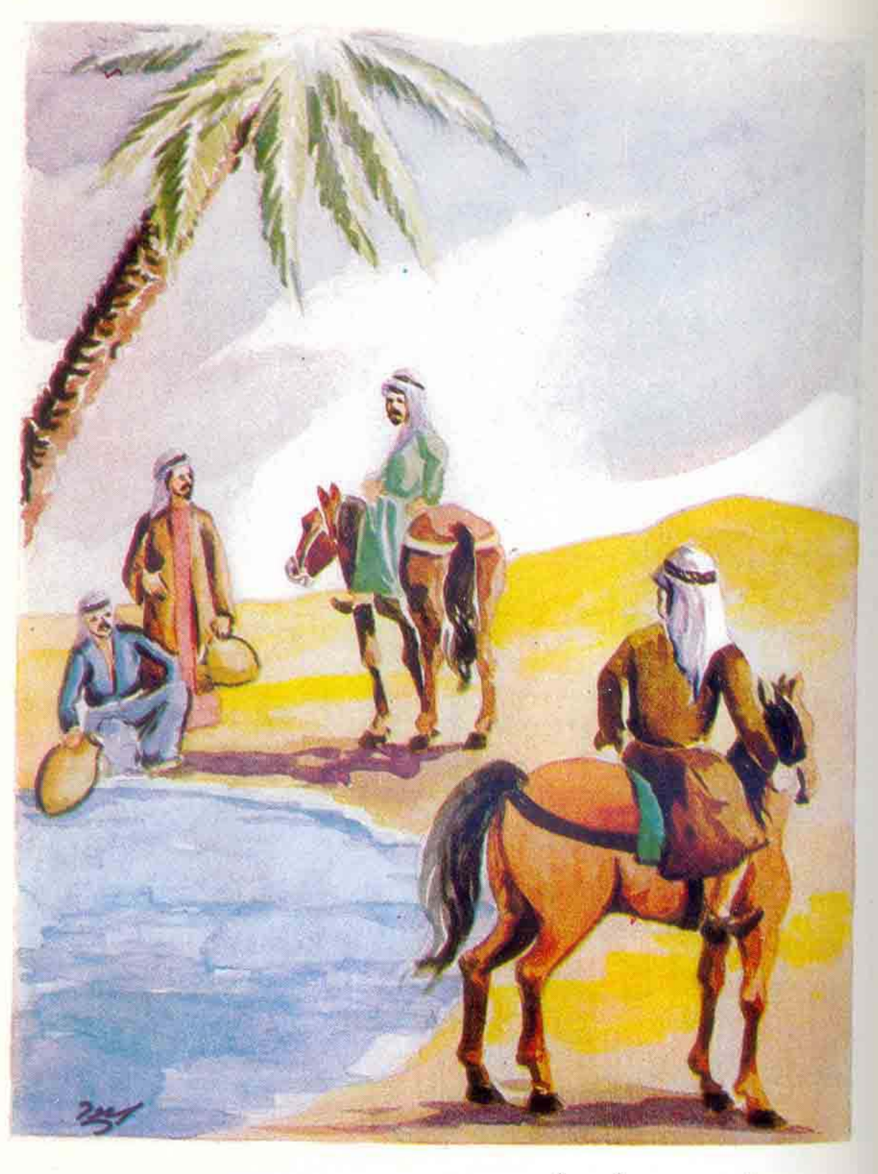
ــ لا نَدْرِي .

ــ كَمْ يَنْحَرونَ كُلَّ يَومٍ لِطَعامِهِمْ ؟

ــ يوماً يَنْحَرونَ تِسْعاً ، وَيَوْماً يَنْحَرونَ عَشْرا .

فَقالَ الرَّسولُ :

ــ القومُ مـا بَيْنَ التِسْعِمائَةِ والأَلْف ... وَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ ؟



ــ نَحْنُ سُقَــاةُ لِقُرَيْش . . . (ص ٢٣) .

فَسمَّيا لَهُ بَعْضَ أَشْرافِها ، فأَقْبَلَ الرَّسولُ على النَّاسِ ، يَقولُ :

ـ هٰذِهِ مَكَّةُ قَدْ رَمَتْ إِلَيْكُم أَبْناءَها .

أبو سُفْيانَ يُغيِّرُ طَريقَهُ !

مَضى اثْنانِ مِنَ الْمُسْلِمينَ حَتّىٰ نَزَلا بَدْراً فَتَرَكا بَعيرَيْهِما حَوْلَ تَلٍّ قَريبٍ مِنَ الْماءِ ، ثُمَّ أَخَذا قُرْبَةً يَسْتَقِيانِ فيها ، فَسَمِعا جارِيَتَيْنِ تَتَخاصَمانِ على الْماءِ ، والأُولى تَقولُ لِصاحِبَتِها :

ـ إِنَّما تَأْتي الْقافِلَةُ غداً ، أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، وَبذٰلِكَ أَكْسَبُ مِنْكِ الرِّهانَ .

وَكادَ أَمرُهُما يَنْقَلِبُ إِلى نِزاعٍ ، وأَثْناءَ ذٰلِكَ انْحَدَرَ رَجُلٌ مِنْ أَصحابِ أَبي سَفْيانَ على الْماءِ ،

فَسَمِعَ قَوْلَ الجارِيَةِ ، فقالَ :

ـ صَدَقْتِ ! إِنَّ الْقافِلَةَ سَتَصِلُ غداً .

ثُمَّ خَلَّص بَيْنَهما ، وَما إِنْ سَمِعَ الرَّجُلانِ الْمُسْلِمانِ ذٰلِكَ ، حَتَّى عَادا إلى بَعِيرَيْهِما ، وانطَلَقا ، حَتَّى أَتَيا الرَّسولَ ، فَأَخْبراهُ بِما سَمِعا . فَهَتَفَ بِالْقَوْمِ أَنِ اسْتَعِدُّوا .

وفي أَثْنَاءِ ذٰلِكَ أَقْبَلَ أَبو سُفيانَ حَذِراً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَافِلَة ، حَتَّى وَرَدَ الْمـاءَ ، فَرَأَى صاحِبَه لا يَزالُ في مُوْضِعِهِ ، فَسأَلَهُ أَبو سُفْيانَ :

ـ هَلْ رأَيتَ أَحداً مِنَ الْقَوْمِ ؟

قَالَ الرَّجُلُ :

ـ ما رَأَيْتُ أَحداً غَريباً عَنَّـا ، إِلّا أَنِّي

رأيتُ راكِبَين ، نزلا بِجانِبِ هٰذا التَّلِّ عَنْ بَعِيرَيْهِما ، ثُمَّ اسْتَقَيا في قُرْبَةٍ لَهُما ، وَانْطَلَقا .

فَأَقْبَلَ أَبو سُفْيانَ على المَكانِ الَّذي نَزَلا فيهِ ، فَأَخَذَ مِنْ أَبْعارِ بَعيرَيْهِما فَفَتَّه ، فإِذا فيهِ نَوى تَمْرٍ مِنْ تَمْرِ المَدينَةِ ، فَقالَ :

ــ أَلْوَيْلُ لَنا ! هٰذِهِ ، وَاللهِ ، جَماعَةُ مُحَمَّدٍ أَقْبَلَتْ عَلَيْنا مِنَ الْمَدينَةِ .

فَرَجَعَ إِلى أَصْحابِهِ سَريعاً ، وَغَيَّرَ وَجْهَ قافِلَتِهِ عَنِ الطَّريقِ ، وَقَصَدَ بِها ساحِلَ البَحْرِ ، وَتَرَكَ بَدْراً عَنْ يَسارِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى أَسْرَعَ . وَلَمَّا رَأى أَنَّه قَدْ أَمِنَ على قافِلَتِهِ أَرْسَلَ إِلى قُرَيْشٍ يُبَشِّرُ رِجالَها بِأَنَّ الْقافِلَةَ قَدْ نَجَتْ بِما فيها ،

فَلْيَرْجِعوا عَنْ مُحَمَّدٍ وأصْحابِهِ إلى دِيارِهِمْ .

إِصْرارُ قُرَيشٍ على الْحَرْبِ !

لَمَّا سَمِعَ أَبو جَهْلٍ رِسالَةَ أَبي سُفْيانَ ، وَقَفَ في الْقَوْمِ ، وَقالَ :

ــ إلى أَيْنَ ؟ واللهِ ، لا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْراً ، فَنُقِيمَ عَلَيْهِ ثلاثَ لَيالٍ ، وَنَنْحرَ الْغَنَمَ ، وَنُطْعِمَ الطَّعَامَ ، وَنَسْقِيَ الخُمورَ ، وتَعْزِفَ عَلَيْنا الْمُغَنِّياتُ ، وَتَسْمَعَ بنا العَرَبُ ، بِمَسيرَتِنا وَجَمْعِنا ، وَبِذٰلِكَ ، لا يَزالونَ يَخافونَنا أَبَداً ، فَامْضُوا إلى بَدْرٍ !

وَلَمْ يَلْبَثْ صَوْتُ أَبي جَهْلٍ أَنْ حَمَّسَ الْقَوْمَ على مُواصَلَةِ سَيْرِهِمْ نَحْوَ بَدْرٍ .

مَضَتْ قُرَيْش حَتَّى نَزَلُوا بِالْجَانِبِ الْبَعيدِ مِنَ الْوادِي ، خلفَ الرَّابيَةِ ، بَيْنَما سَبَقَ الرَّسولُ إلى مواردِ الْماءِ ، حَتَّى بَلَغَ مـــاءً مِنْ مِياهِ بَدْرٍ ، فَنَزَلَ بِهِ . فسأَلَهُ واحِدٌ مِنْ أَصْحابِهِ :

ــ يا رَسولَ اللهِ ! أَرأَيتَ هٰذا الْمَنزِلَ الذّي نَزَلْتَ فيْهِ ؟ أَهُو مَنْزِلٌ أَمَرَكَ اللهُ بِنُزولِهِ ؟ فَلَيْس لَنا أنْ نَتَقَدَّمَهُ ، وَلا نَتأَخَّرَ عَنْهُ ؟ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ والْحَرْبُ وَالْمكيدَةُ ؟

فَقالَ الرَّسولُ :

ــ بَلْ هُو الرَّأْيُ والْحَرْبُ وَالْمَـكيدَةُ .

فَقالَ الرَّجلُ :

ــ يا رَسولَ اللهِ ! إِنَّ هٰذا لَيْسَ لَكَ بِمَنْزِلٍ

صالحٍ . فَانْهَضْ بالنَّاسِ ، حَتَّى تأْتِيَ أَقْربَ ماءٍ مِنْ مِياهِ الْقَوْمِ ، فَتَنْزِلَهُ ، ثُمَّ تَطُمَّ سِواهُ مِنْ الآبارِ ، ثُمَّ تَبْنِيَ عَلَيهِ حَوضاً ، فَتَمْلَأَهُ ماءً ، ثُمَّ تُقاتِلَ الْقَومَ ، فَنَشْرَبَ وَلا يَشْرَبوا .

فَقالَ الرَّسولُ :

ـ لَقَدْ أَشَرْتَ بالرَّأْيِ الصَّحِيحِ .

ثُمَّ نَهَضَ الرَّسولُ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النَّاسِ ، يَعْمَلون بِما أَشارَ إِلَيْهِ الرَّجلُ ، وَتِلْكَ صِفَةٌ حَميدَةٌ في الرَّسولِ ، يَرى الرَّأْيَ بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ يَسْتَشِيرُ بِهِ أَصْحابَه ، فإذا رأى مِنْهُمْ رأياً أَصْوَبَ مِنْ رأيِهِ ، أَخَذَ بِهِ ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهِ .

عَريشٌ مِنْ جَريد

بَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ الرَّسولُ وأَصحابُهُ في المَوْضِعِ الذِّي اخْتَاروهُ لِلْمَعْرَكَةِ ، قَالَ زَعيمُ الأَنْصارِ :

ــ يا رَسولَ اللهِ ! سَنَبْني لَكَ عَريشاً مِنْ جَريدٍ ، فتُقيمُ فِيهِ ، وَنَضعُ عِنْدَكَ رَكائِبَكَ ، ثُمَّ نَلْقى عَدوَّنا ، فَإِنْ نَحْنُ أَعزَّنا اللهَ ، وَنَصَرَنا على عَدُوِّنا كان ذلِكَ ما أَحبَبْنا ، وإِنْ كانَتِ الهزيمةُ جلَسْتَ على رَكائِبِك ، فلحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنا مِنْ قَوْمِنا ، وَهُمْ يَحْمونَكَ مِنْ كَلِّ أَذىً .

ثم بُنِيَ لِلرَّسولِ عريشٌ أَقامَ فيهِ .

وَما هِيَ إِلّا ساعاتٌ حَتَّى اقْتَرَبَتْ قُرَيْشٌ ، وأَقبلَتْ ، فَلَمَّا رآها الرَّسولُ تَنْحَدِرُ مِنَ التَّلِّ

إلى الْوادي قالَ :

ـ أللّهمَّ ! هذي قُرَيشٌ قَدْ أَقْبلتْ بِكبْرِيائِها وَفخْرِها ، تَتَحدَّاكَ وتُكَذِّبُ رسولك . أللّهمَّ ! آتِني نَصْرَكَ الّذي وَعدْتَ . اللّهمَّ ! تَوَلَّ أمْرَهُم !

انْحَدَرَ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، حَتَّى وَرَدوا الْحَوْضَ ، حَوْضَ الرَّسولِ ، فأَحَبَّ نَفَرٌ مِنَ الْمُسْلِمينَ أنْ يَمْنَعوهُم ، فَقالَ لَهُم الرَّسولُ :

ـ دَعُوهم يَشْرَبوا !

وَشَرِبوا ، وَما شَرِبَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إلّا قُتِلَ في ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، ما عدا واحِداً هَرَبَ على فَرَسٍ لَهُ ، وَنجا مِنَ الْقَتْلِ ، ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَكانَ إذا أَرادَ أَنْ يَحلِفَ على شَيْءٍ قالَ :

ـ وَالذّي نجّاني مِنَ المَـوْت في يَوْمِ بَدْرٍ .

رجالٌ لِلْمَوت

لَمَّا اطمأنَّ رِجالُ قُرَيْشٍ بَعَثوا رَجُلاً مِنْهُمْ ، وَقالوا لَهُ :

ـ أحزُرْ لَنا عَدَدَ أَصْحابِ مُحَمَّدٍ !

فَجالَ بِفَرسِهِ حَوْلَ العَسْكَرِ ، ثُمَّ رَجَعَ إلى قَوْمِهِ ، فَقالَ :

ـ ثلاثُمائة رَجُلٍ يَزيدونَ قَليلاً ، أَوْ يَنْقُصون .. وَلَكِنْ ، أمهِلوني حتَّى أَنظُرَ : هل لِلْقَوْمِ كَمينٌ أَوْ مَدَد ؟

فَضَربَ في الوادي ، وَتَغَلْغَلَ في أَطْرافِهِ ، فَلَمْ يرَ شيْئاً ، فرَجعَ وقالَ :

ـ لَمْ أَرَ شيئاً . ولَكِنْ ، قَدْ رَأَيْتُ ، يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، رِجالاً لا يَهابونَ الموت ... وَلا مَلْجَأَ لَهُمْ إلّا سِيوفُهم . وَاللهِ ، ما أَرى ان يُقتَلَ رجلٌ منهم ، حتّى يَقْتُلَ رَجُلاً منكم ، فإذا أَصابوا مِنْكُمْ أَعدادَهُمْ ، فما هُو خيرُ الْعَيْشِ بَعْدَ ذلِكَ ؟ فانظُروا أَمْرَكُمْ ! وأَعْمِلوا رَأْيَكُمْ !

فَلَمّا سَمِعَ حَكيمُ بنُ حِزامٍ ذلِكَ مَشى في النّاسِ ، فأتى سَيِّدَ قُرَيْشٍ عُتْبَةَ بنَ رَبيعة ، وَقالَ :

ـ يا عُتبةُ ! إنّكَ كَبيرُ قُرَيْشٍ اللّيْلَةَ ، وَسيِّدُها ، والمُطاعُ فيها . هَلْ لكَ إلى أمرٍ لا تَزالُ تُذكَرُ مِنْهُ بخَيْرٍ إلى آخِرِ الدَّهرِ ؟

قال عُتْبَةُ :

ــ وَماذاكَ يا حَكيمُ ؟

تَرْجِع بالنَّاسِ إلى دِيارِهِمْ .

ــ قَدْ فعَلْتُ ، وأنْتَ على ذٰلِكَ شَهيد .

ثُمَّ قامَ عُتْبَةُ خَطيباً في النَّاسِ ، فَقالَ :

ــ يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! واللهِ ، ما تَكْسَبُونَ بِلِقاءِ مُحَمَّدٍ وأصْحَابه شَيْئاً ، واللهِ ، لئِنْ أَصَبْتُموهُ ، لا يَزالُ الرَّجلُ مِنْكُمْ يَنْظُرُ في وَجهِ رَجُلٍ يَكْرَهُ النَّظَرَ إليهِ : رَجُلٍ قَتلَ ابنَ عَمِّهِ ، أوِ ابنَ خالِه ، أو رجلاً مِنْ عَشيرتِهِ . فارْجعوا ، وَخَلُّوا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ سائرِ العَرَبِ ، فَإن أَصابوهُ فَذٰلِكَ الذي أَرَدْتُمْ ، وَإنْ كان غَيْرَ ذٰلِكَ لقِيتُموه ، وَفَعَلْتُمْ

بِهِ ما تُريدُونَ .

فَنَهَضَ أبو جَهْلٍ مُغْضباً ، وكان يهيّئُ دِرْعَهُ لِلْقِتالِ ، فَقالَ :

ــ إيهٍ يا عُتْبةُ ! ما أَجْبَنَكَ الْيَوْمَ ! لَقَدْ نَفَخَ الْخَوفُ صَدْرَكَ حِيْنَ رَأيتَ مُحَمَّداً وأصْحَابَهُ . لَقَدْ رَأَيتَ الْقَوْمَ قِلَّةً ، وَفِيهِمْ ابنُكَ الّذي أَسْلمَ ، فَتَخَوَّفْتَ عَلَيْهِ مِنْ الْقَتْلِ ... كَلّا ، واللهِ ، لا مَرْجِعَ حتّى يحكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبينَ مُحَمّدٍ وأَصْحابِهِ .

فَرَدَّ عَلَيه عُتْبَةُ ، وَقَدْ أَخذَتْه عِزَّةُ الجَّاهِلِيَة :

ــ سَتَعْلَمُ قَريباً مَنْ نَفَخَ الْخَوْفُ صَدْرَهُ ، أنَا أَمْ أَنْتَ ؟

ثُمَّ التَمَسَ عُتْبَةُ خُوذَةً لِيُدخِلَها في رَأْسِهِ ، فَلَمْ

يَجِـــدْ في الجَيْشِ خُوذَةً تَسَعُ رأسَه ، مِنْ ضَخامَةِ رأسِه ، فَلَفَّ رأسَه بِثَوْبٍ لَهُ وَقالَ :

ـــ سَتَعْلَمُ الْحَرْبُ أَنَّا رِجالُها .

وَهكذا مَالتْ قريشٌ إلى الحَرْبِ ، بَعْد أَنْ حَمَّسها أَبو جَهْلٍ ، وأَفْسَدَ على النَّاسِ الرأيَ الّذي دَعاهُمْ إلَيْهِ عُتْبَةُ .

دُعاءُ النَّبيِّ يَوْمَ بَدْرٍ

من وَسْطِ الْعَريشِ ، أَرْسَلَ النَّبيُّ نَظَرَهُ إلى الْمُشْرِكينَ وعِدَّتِهِم ، وكَثْرَتِهِم ، وإلى أَصْحابِهِ ، وَهُمْ قِلَّةٌ ، فَاسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ ، وَجَعَلَ يَدْعو رَبَّه ، وَيقولُ :

ـــ اللَّهُمَّ أَنْجِزْ ليَ اليومَ ما وَعَدْتني ! إنْ تَهلِكْ

هذه العِصابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ ، فَلَنْ تُعبَدَ في الأَرْضِ بَعْدَها .

وَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ ، حَتّى سَقَطَ رِداؤُه عَنْ جَسَدِهِ ، فَتَناوَلَ أَبو بَكْرٍ الرِّداءَ ، وَوَضَعَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمْسَكَ بِهِ مِنْ وَرائِهِ ، وَقالَ :

ــ كَفاكَ ، يا نَبِيَّ اللهَ ! بِأَبي أَنتَ وأُمّي ! فقد أَلْحَحْتَ على ربِّك ، إِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ .

وَخَرَجَ الرَّسولُ إلى بابِ العَريْشِ ، وَهُو يُرَدِّدُ :

ــ سَيُهْزَم الجَمْعُ في هٰذا اليَوْم !

ثُمَّ عادَ إلى العَرِيش ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ النَّومُ ، وَما هي إلّا لَحظاتٌ حَتّى انْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ ، وهو يقول :

ـ يا أَبا بَكْرٍ ! أَتاكَ نَصْرُ اللهِ . هٰذا جِبْرِيلُ مُمْسِكٌ بِلِجامِ فَرَسِهِ ، يَقودُه ، وَعَلى وَجْهِهِ الغُبارُ .

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسولُ إلى النَّاسِ ، فحثَّهم عَلى القِتَالِ . وَجَعَلَ لِكُلِّ مُقاتِلٍ مِنْهُمْ ما يَسْتَولي عَلَيْهِ مِنْ أَسْلابِ الْعَدُوِّ ، وأَمَرَ أَصْحابَه أَلَّا يَحْمِلوا على عدوِّهم حتَّى يَأْمُرَهُمْ . وَقالَ :

ـ وَالّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لا يُقاتِلُهُم الْيَوْمَ رَجُلٌ ، فَيُقْتَلَ صابِراً ، إِلّا أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ .

فَقالَ أَحَدُ أَصْحابِهِ ، وفي يَدِهِ تَمَراتٌ يأْكُلُها :

ـ أَيَكُونُ نصيبي الجَنَّةَ إذا قَتَلَني هؤلاءِ ؟

ـ أَجَلْ .

فَقَذَفَ الرَّجُلُ التَّمْراتِ مِنْ يَدِهِ ، وأَخَذَ سَيْفَهُ ،

وَهوْ يَقولُ :

رَكْضاً إلى اللهِ بِغَيرِ زادِ   والصبرَ في اللهِ على الجهّادِ

المُبارَزة الأُولى

في صَباحِ يَوْمِ بَدْرٍ ، خَرَجَ الأَسوَدُ المَخْزوميّ ــ وَكانَ رَجُلاً شَرِساً ، سَيّىء الخُلُقِ ــ وَهوَ يَقولُ :

ــ أُعاهِدُ اللهَ لَأَشربَنَّ مِنْ حَوضِهِمْ ، أَو لأَهدِمَنَّهُ ، أَو لأموتَنَّ دونَهُ وَمَضى ، حَتَّى إذا صارَ قريباً مِنَ الحَوْضِ ، خَرَجَ لَهُ حَمْزَةُ عَمُّ النَبيّ ، فَلَمَّا التَقَيا تَضارَبا بِالسُّيوفِ ، فَأَصابَهُ حَمْزَةُ بِضَربَةٍ قَطَعَتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ ساقِهِ ، فَوقَعَ عَلى ظَهْرِهِ ، تَسيلُ رِجلُه دَماً ، ثُمَّ عَدا إلى الحَوْضِ ، حَتَّى أَدْرَكَهُ ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ فِيه ، يُريدُ أَنْ يَبِرَّ بِقَسَمِهِ ، وَلٰكِنَّ حَمْزَةَ



قَذَفَ ٱلرَّجُلُ ٱلتَّمراتِ ، وَأَخَذَ سَيْفَه . . (ص ٣٩) ٠ ٣

أَتْبَعَهُ ضَرْبَةً أخرى قَضَتْ عَلَيْهِ ، دونَ أَنْ يَنالَ مِنْ الْحَوْضِ قَطْرَةَ مَاءٍ .

ثُمَّ خَرجَ بَعْدَهُ زَعيمُ قُرَيْشٍ عُتْبَةُ بنُ رَبيعَة ، يَخْتالُ في مِشْيَتِهِ ، عَنْ يَمينِهِ أَخوهُ ، وَعَنْ يسارِهِ وَلَدُهُ ، حَتَّى إِذا انْتَصَفَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، نادى :

ـ هَلْ مِنْ مُبارِزٍ ؟

فَخَرَجَ إِلَيْهِ ثَلاثَةُ فِتْيَةٍ مِنْ الأَنْصارِ ، وَلَمَّا تَقابَلوا سَأَلَهُمْ عُتْبَةُ .

ـ مَنْ أَنْتُمْ ؟

فَقالوا .

ـ نفرٌ مِنْ الأَنصار .

فقالَ :

ـــ ما لنا بِكُمْ حاجَةٌ . إرجِعوا ! إنَّما نُريدُ قَومَنا .

فرَجَعوا ، ثُمَّ نادى عُتْبَةُ :

ـــ يا مُحَمَّدُ ! أَخرِجْ إلَيْنا أَكْفاءَنا مِنْ قَومِنا !

فَنادى الرَّسولُ حَمْزَةَ ، وعُبَيْدَةَ بنَ الحارِث ، وعليَّ بنَ ابي طالِب ، وَقَذَفَ بِهِمْ إلى المُبارَزةِ . فَلَّما تَلاقوا وَتعارَفُوا قالَ عُتْبَةُ :

ـــ إنَّكُمْ أَكْفاءٌ كِرامٌ .

فَبارَزَ عُبَيْدَةُ ـــ وَكانَ أسنَّ القَوْمِ ـــ عُتْبَةَ ، وَبارَزَ حَمْزةُ أَخاهُ ، وَبارَزَ عَليٌّ وَلَدَهُ . فَأَمّا حَمْزَةُ فَلَمْ يُمْهِلْ أَخاهُ حَتَّى قَتَلَهُ ، وأَما عليٌّ فَلَمْ يُمْهِل وَلَدَهُ حَتَّى قَتَلَهُ . وَأَمَّا عُبَيْدَةُ فَقَدْ اخْتَلَفَتْ بَيْنَهُ

وَبَيْنَ عُتْبَةَ ضَرْبَتان ، كِلاهُما أصابَ مِنْ صاحِبِهِ مَقْتَلاً ، فكرَّ عليٌّ وَحَمْزَةُ على عُتْبَةَ بِأسْيافِهِما ، فأجْهَزا عَلَيْهِ ، فَقَتلاه . وَحَمَلا صاحِبَهُما عُبَيْدَة ، وَقَدْ قُطِعَتْ رِجْلُهُ ، ومُخُّهُ يَسيل ، فَلَمَّا رَأى الرَّسولَ سَألَهُ :

ـــ ألَسْتُ شَهيداً يا رَسولَ اللهِ ؟

قالَ :

ـــ بَلَى .

وَأغْمَضَ عُبَيْدَةُ عَيْنَيْهِ عَلى شَرَفِ الشَّهادَةِ راضِياً مُطْمَئِنّاً

اشْتِعالُ الحَرْبِ

تَحَفَّزَ النَّاسُ بَعْدَ الْمُبارَزَة ، وَاقْتَرَبَ بَعْضُهم

مِنْ بَعْضٍ ، فقالَ أبو جَهْلٍ :

ــ اللّهمَّ أَهْلِكِ البادئَ بالظُّلْمِ !

فَكان ، بِهذا الدُّعاءِ ، كَأَنَّما يَدْعو على نَفْسِهِ .

وَأَخذَ الرَّسولُ حَفْنَــةً مِن الْحَصى ، وَاسْتَقْبَلَ بِها قُرَيْشاً ، ثُمَّ قالَ :

ــ شَوَّه اللهُ الوُجوهَ !

ثُمَّ قَذَفَهُمْ بِهـا ، وَأَمَرَ أَصْحابَهُ بِأَنْ يَحْمِلوا عَلَيْهِمْ ، فَكانَ الالْتِحامُ الْأَوَّلُ بَيْنَ قُرَيْشٍ والْمُسْلِمينَ : قُرَيْشٌ تُدافِعُ عَنْ عِزِّهـــا ، وَشَرَفِ أَوْثانِها ، وَطَريقِ تِجارَتِها ، وَأَمْوالِ قافِلَتِها ، والْمُسْلِمونَ إِنَّمـا يُدافِعون عَنْ عَقيدَةٍ راسِخَةٍ في النُّفوسِ ، وَإِيمانٍ بِإِلهٍ واحِدٍ ، لَا شَريكَ لَهُ .

وَحَمِيَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الفريقَيْنِ ، ضَرْباً بِالسِّيوفِ ، وَطَعْناً بالرُّمْحِ ، ورَمْيـاً بالسِّهامِ ، فَكَانَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَسَرى الرُّعْبُ في قُلوبِ رِجالِ قُرَيْشٍ ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِم الْهَزِيمَةُ .

وَما رَأَتِ الصَّحْراءُ ، قَبْلَ هٰذا الْيَوْمِ ، مِثْلَ هٰذا الجَيْشِ الْمُتَمَزِّقِ ، مِنْهُمْ مَنْ يَسْعى راجِلاً ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْكُضُ رَاكِباً ، يُرِيدُ النَّجاةَ بِنَفْسِهِ ، يَتَوَهَّمُ أَنَّ وَراءَ كُلِّ رَابِيَةٍ كَميناً يَقْطَعُ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَخَلْفَ كُلِّ بَرِيقٍ سَيْفاً يَسْطَعُ في وَجْهِهِ .

أَلْكُـلُّ يُرِيدُ مَكَّةَ ، وَمَكَّةُ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ أَبْنَائِها ، عَلى خَوْفٍ وَقَلَقٍ ، لا تَدْري ، ما الْمَصِيرُ ؟

وَكَانَتْ وَقْعَـةُ بَدْرٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، صَبيحَةَ

سَبعَ عَشرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ في الْعَامِ الثاني من الهجرة (٦٢٣ م) .

سَعْدٌ يُريدُ ٱلْقَتْلَ والنَّبِيُّ يُريدُ الأَسْرَ

لَمَّا راحَ ٱلْمُسْلِمونَ يَأْخُذونَ الأَسْرَى مِنْ قُرَيْشٍ ، كانَ النَّبِيُّ في ٱلْعَرِيشِ ، وَسَعْدُ بْنُ مُعاذَ زَعيمُ الأَنصارِ قائِمٌ عَلى بابِ ٱلْعَريْشِ ، وَهُو مُتَوَشِّحٌ بِسَيْفِهِ ، مَعَ نَفَرٍ مِنَ الأَنْصارِ ، يَحْرُسونَ النَّبِيَّ . ٱلْتَفَتَ الرَّسولُ إِلى سَعْدٍ ، فَرأَى فِي وَجْهِهِ الْكَراهَةَ فيمَا يَصْنَعُ النَّاسُ ، فَقالَ لَهُ :

ـــ مَالَكَ يا سَعْدُ ؟ كَأَني أَراكَ كرِهتَ ما يعْمَلُ النَّاسُ !

ـــ أَجَلْ ، واللهِ ، يا رَسولَ اللهِ . كانَتْ هذه

الْوَقْعَةُ أَوَّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَها اللهُ بِأَهْلِ الْكُفْرِ . والإمعانُ في القَتْلِ ، عِنْدي ، أَفْضَلُ مِنْ اسْتِبقاءِ الرِّجالِ أُسارى .

فَسَكَتَ الرَّسولُ ، وفي سُكوتِهِ تَعْبيرٌ عَنْ عَدَمِ رِضاهِ .

أَيْنَ أبو جَهْلٍ ؟

لَمَّا فَرغَ الرَّسولُ مِنْ غَزْوَةِ بَدرٍ أَمرَ بِأَبي جَهْلٍ أَنْ يَبْحَثوا عَنْهُ في القَتْلَى ، وَقالَ :

ــ أُنظُروا ! ــ إِنْ خَفِيَ عَلَيْكُم أَبو جَهْلٍ في القَتْلَى ــ إلى أَثَرِ جُرْحٍ بِرُكْبَتِهِ ، فَإِنِّي ازْدَحَمْتُ أَنا وَهُوَ ، يومـاً ، على إِحْدى المآدِبِ ، وَنَحْنُ غُلامانِ . وَكُنْتُ أَشَبَّ مِنْهُ بِقَليلٍ . فَدَفَعْتُهُ ،

فَوَقَعَ على رُكْبَتَيْهِ ، فَتَرَكَ ذٰلِكَ خَدْشاً فيهما لَمْ يَذْهَبْ أَثَرُهُ .

وَخَرَجَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَتَعَقَّبونَ أَثَرَهُ بَيْنَ الجَرْحى والْقَتْلى . أَمَّا أَبو جَهْلٍ فَقَدْ كانَ قاتَلَ طولَ يَوْمِهِ ، حَتَّى أُصيبَ بِضَرْبَةِ سَيْفٍ في قَدَمِهِ ، فالْتَجَأَ إلى مُجْتَمَعِ شَجَرٍ كَثيفٍ ، يُحاوِلُ أَنْ يَسْتَخْفِيَ عَنِ ٱلْعُيونِ ، لَعَلَّهُ يَنجو بَعْدَ حُلولِ الظَّلامِ .

وَفَجْأَةً وَقَعَتْ أَنْظارُ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ عَلى رَجُلٍ بِآخِرِ رَمَقٍ مِنْ حَياتِهِ ، — وَكانَ لا يَعْرِفُهُ — فَكَشَفَ عَنْ رُكْبَتِهِ ، فَإذا بِهِ يَجِدُ الخَدْشَ الّذي وَصَفَهُ الرَّسولُ ، فَعَرَفَ شَخْصَهُ ، وَتَثَبَّتَ مِنْه



ـ هَلْ أَخزاكَ اللهُ ، يا عَدُوَّ اللهِ ؟ (ص ٤٩) . ٤

فَوَضعَ رِجْلَهُ على عُنُقِهِ ، وقالَ :

ــ هَلْ أَخْزاكَ اللهُ ، يا عَدُوَّ اللهِ ؟

قالَ أبو جَهْلٍ :

ــ وَبماذا أَخزاني اللهُ ؟ هَلْ أَنا إِلّا سيِّدٌ قتَلَهُ قَوْمُه ؟ هَلْ في ذٰلِكَ مِنْ عارٍ ؟ وَلٰكِنْ ... لِمَنِ النَّصْرُ اليَوْمَ ؟

فَضَحِكَ ابنُ مَسْعودٍ لِهٰذا التَّجاهُلِ ، وقال :

ــ أَوَلَمْ تَسْمَعْ بِما أَصابَ قُرَيْشاً ؟ إِنَّ النَّصْرَ لِلهِ وَلِرَسولِهِ .

فَقالَ أبو جَهْلٍ ، وَقَدْ تَقَلَّصَ وَجهُه لِهٰذا الخَبَرِ :

ــ لا خَيْرَ ، إذاً ، بَعْدَ قَوْمي في الحَياةِ !

ثُمَّ احتزَّ ابنُ مَسعودٍ رأسَهُ ، وجـــاءَ بِهِ الرَّسولَ الّذي كانَ يَنْتَظِرُ ، وَقالَ :

ــ يا رَسولَ اللهِ ! هٰــذا رَأْسُ عَدُوِّ اللهِ أبي جَهْلٍ .

فتهلَّلَ وَجْهُ الرَّسولِ ، وَقالَ :

ــ أهٰذا هُوَ رَأْسُهُ ؟

ــ نَعَمْ ، وَاللهِ ، إِنَّهُ هُو رَأْسُهُ .

وَأَلْقَى رَأْسَ أَبي جَهْلٍ بَيْنَ يَدَيِ الرَّسولِ الّذي حَمِدَ اللهَ عَلى ما انْتَهى إليهِ أَمْرُ عَدُوِّ اللهِ .

مُناجاةُ الرَّسولِ لِلْقَتْلَى

ثُمَّ أَمَرَ الرَّسولُ بأَنْ يُطْرَحَ الْقَتْلَى في بِئْرِ بَدْرٍ ، ويُدفَنوا فيها ... وَبَعْدَ أَنْ انْتهى أَصْحابُ الرَّسول

مِنْ عَمَلِهِمْ ، وَقَفَ على ٱلبِئْرِ ، حَيْثُ تكدَّستْ جُثَثُهم ، فَقالَ :

ـ يا أَهلَ القَليبِ (ٱلبِئْرِ) يا رِجالَ قُرَيشٍ ! هَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقّاً ؟ فَإني وَجَدْتُ ما وَعَدَني رَبّي حَقًّا . يا أَهلَ القَليب ! بِئْسَ عَشيرَةَ النَّبيِّ كُنْتم لِنَبِيِّكُمْ . كَذَّبْتُموني وصدَّقَني النّاسُ . وأَخرَجْتُموني وَآواني النّاسُ ، وَقاتَلْتُموني وَنَصَرني النَّاسُ .

فَقالَ لَهُ أَصْحابُهُ :

ـ يا رَسولَ اللهِ أَتُكَلِّمُ قَوْماً مَوتى ؟

فَقالَ :

ـ لَقَدْ عَلِموا أَنَّ ما وَعَدَهُمْ رَبُّهم حَقٌّ ، ما أَنْتُمْ

بأَسمعَ لِما أَقولُ مِنْهُمْ ، ولكِنَّهُمْ لا يَسْتَطيعون أَنْ يُجيبوني .

وٱلْتَفَتَ الرَّسولُ ، فَنَظَرَ إلى وَجْهِ أبي حُذيفة ٱبنِ عُتْبَةَ ، فإذا هُوْ كَئيبٌ قدْ تغيَّرَ . فقالَ لَهُ :

ــ يا أَبا حُذَيْفَةَ ! لعلَّكَ قَدْ دَخَلَكَ مِنْ شأْنِ أَبيكَ شَيْء !

ــ لا ، واللهِ ، يا رَسُولَ اللهِ ، ما شَكَكْتُ في أَبي ، وَلا في مَصْرَعِهِ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ أَعرِفُ مِنْ أَبي رَأْياً وَفَضْلاً وَحِلْماً ، فَكُنْتُ أَرْجو أَنْ يَهْدِيَه اللهُ إلى الاسْلامِ . فلَمَّا رَأَيتُ ما أَصابَهُ ، وَذَكَرْتُ ما ماتَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْكُفْرِ ، بَعْدَ الّذي كُنْتُ أَرْجو لَهُ مِنَ الْخَيْرِ ، أَحْزَنَني مَوْتُه

عَلى ٱلْكُفْرِ .

فَدَعا الرَّسولُ لَهُ ، وَهدَّأَ عَنْهُ .

التَّزاحُمُ عَلى الأَسْلابِ

أَمَرَ الرَّسولُ بِجَمْعِ الأَسْلابِ والْغَنائِمِ ، فَجَمَعَها ٱلْمُسْلِمونَ وَٱخْتَلَفوا في تَقْسيمِها . فَقالَ مَنْ جَمَعَها :

ــ إِنَّ الأَسْلابَ لَنا . لِأَنَّ الرَّسولَ قَدْ وَعَدَ بِأَنْ يَأْخُذَ كُلُّ امرِئٍ ما جَمَعَهُ لِنَفْسِهِ .

وَقالَ الَّذينَ كانوا يُقاتِلونَ ٱلْعَدُوَّ ، وَيَطْرُدونَهُمْ :

ــ لولا نَحْنُ ما جَمَعْتُمْ شَيئاً مِنَ ٱلْأَسْلابِ ، قَدْ شَغَلْنا ٱلْعَدُوَّ عَنْكُمْ في ٱلْقِتالِ ، حَتَّى جَمَعْتُمْ ما جَمَعْتُمْ .

وَقالَ الَّذينَ كانوا يَحْرِسونَ الرَّسولَ في العَريشِ :

ـ نَحْنُ حَرَسْنا الرَّسولَ مخافَةَ أَنْ يَكُرَّ عليه ٱلْعدوُّ مِنْ خلْفِهِ ، ولَقَدْ كانَ بإِمْكانِنا أَنْ نَتْرُكَ الرَّسولَ وَحدَهُ ، ونَجْمَعَ مِنَ الأَسْلابِ كَمَا جَمَعْتُمْ . وَلٰكِنْ خِفْنا عَلَيْهِ غدْرَ العَدُوّ بِــهِ ، فلَزِمْنا مَوَاضِعَنا ، ومَا أَنْتُمْ بِأَحقَّ بِٱلأَسْلابِ مِنَّا .

كُــلُّ ذٰلِكَ ، والرَّسولُ يَسْتَمِعُ إِلى هَؤُلاءِ وَهؤُلاءِ ، وَهُوَ يَخْشى أَنْ تَكونَ فِتْنَــةٌ بَيْنَ أَصحابِهِ ، وَطالَما فرَّقَتْ فِتْنَــةُ المَالِ قُلوبَ النّاسِ ، حَتّى الأَصْحابَ .

فَأَمَرَ الرَّسولُ بِحَمْلِ الغَنائِمِ ، وَفي الطَّريقِ قالَ :

ـ كُلُّكُمْ قَــامَ بِواجِبِهِ في المَعْرَكَةِ ... الّذي قَاتَلَ ، وَالَّذي حَرَسَني ، وَالَّذي جَمَعَ ٱلْغَنائِمَ .

لِذٰلِكَ ، رَأَيْتُ أَنْ يَنالَ كلُّ مَنْ حَضَرَ يَوْمَ بَدْرٍ نصيباً مُتَساوِياً مِنْ هٰذه الغَنائِمِ .

وَهٰكذا قَضَى الرَّسولُ عَلى هذه الْفِتْنَةِ بِحِكْمَةٍ ، وَقامَ بِتَوْزيعِ ٱلْغَنَائِمِ على أَبْطالِ بَدْرٍ كُلِّهم على السَّواءِ . ثُمَّ أَتَّجَهَ نَحْوَ الْمَدينَةِ ، مُخَلِّفاً وَراءَه الأُسارى ، وَلَمَّا بَلَغَها أَقْبَلَ النَّاسُ يُهَنِّئُونَه بِما فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، فَقالَ لَهُمْ مُسْلِمَةُ بنُ سَلامَة :

ـ ما الّذي تُهَنِّئوننا بِهِ ؟ فَواللهِ ، ما لَقينا إلّا عجائِزَ صُلْعاً ، كَالإِبِلِ المَعْقولَةِ بالحِبالِ ، فَنَحَرْناها .

فَتَبَسَّمَ الرَّسولُ ، ثم قالَ :

ـ يا بْنَ أَخي ! أُولئِكَ هُمْ رِجالاتُ قرَيْشٍ !

عَطفُ الرَّسولِ على الأُسارى

حين أُقْبِلَ بالأُسارى إلى المَدينَةِ ، فرَّقَهُم الرَّسولُ بَيْنَ أَصْحابِهِ ، وَأَوْصاهُم بِأَنْ يُعامِلوهم بِالحُسْنى ، وَكانوا أَرْبَعَةً وأَربعينَ أَسيراً ، وَفيهم أَشرافُ قُرَيْشٍ .

فَكَّر الرَّسولُ في أَمْرِ هَؤلاءِ الأُسارى ، واسْتشار جَماعةً مِنْ أَصابِهِ ، فَكانَ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنْ تُقطَعَ أَعْناقُهُمْ ، جَزاءَ كُفرِهِمْ وعنادِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّ الأَسيرَ لا يُقتَلُ . وَخَيْرٌ مِنْ قَتْلِهِ أَنْ يَفْتَدي كُلُّ أَسيرٍ نَفْسَهُ بالْمالِ ، لَعَلَّ فيهِمْ مَنْ يَهْدِيه اللهُ إلى الإسْلامِ ، فَيَكونَ عَوْناً للإسْلام والْمسْلِمينَ .

وَغَلَبَ الإِشْفاقُ على النَّبيِّ ، وَمالَ إلى هٰذا الرَّأْيِ ، حِرْصاً مِنْهُ على حَقْنِ الدِّماءِ ، وَقَدْ سالَ مِنْها الْكَثيرُ في تِلْكَ الْحَربِ . فَكانَ مَوْقِفُهُ مِنَ الأَسْرى : أَنْ يَفْتَدِيَ القَوِيُّ نَفْسَه بالمالِ . أَمَّا الضَّعيفُ المَقطوعُ فَقَدْ مَنَّ الرَّسولُ عَلَيْهِ بالْعَفْوِ ، وَأَمَّا مَنْ يُحْسِنُ القِراءَةَ والْكِتابَةَ فَفِداؤهُ أَنْ يُعَلِّمَ كلُّ واحدٍ عَشرَةً مِنْ صِبْيَةِ الْمُسْلِمينَ الْقِراءَةَ وَالْكِتابَةَ .

وَكانَ لِهٰذا الْمَوْقِفِ النَّبيلِ أَثَرُه في النُّفوسِ ، إِذْ تَبَيَّنَ لِلْعَدُوِّ أَنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَكُنْ مُحارباً لِلْغَزْوِ والطَّمَعِ ، وَلا طالِباً لِسَفْكِ الدِّماءِ ، وإِنَّما هُو صاحِبُ رِسالَةٍ ، فيها هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلعالَمين ، فَهُوَ

يُسالِمُ مَنْ يُسالِمُهُ ، وَيُحارِبُ مَنْ يُحارِبُهُ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثيرٍ .

مَصيرُ الأُسارىٰ

هٰذا أَبو عَزَّةَ ــ وَكانَ فَقيراً مُحْتاجاً كَثيرَ الْبَنَاتِ ــ لَقِيَ الرَّسولَ ، وَقالَ :

ــ يا رَسولَ اللهِ ! لَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي مالٌ ، وَأَنِّي مُحْتاجٌ ذو عِيالٍ ، لا أَقْدِرُ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسي ، فامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفْوِكَ .

فَمَنَّ عَلَيهِ الرَّسولُ بِعَفْوِهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ عَهْداً أَلَّا يُسِيءَ إِلَيْهِ في قَوْلٍ . وَذاكَ سُهَيْلُ بنُ عَمْروٍ ، رَأَتْهُ زَوْجَةُ الرَّسولِ ، وَقَدْ جُمِعَتْ يَداهُ إِلى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ ، فَمَا مَلَكَتْ نَفْسَها ، حينَ رأتْهُ ، أَنْ

صاحَتْ :

ـ يا سُهَيْلُ ! أهكَذا مَدَدْتم بأيْديكمُ إلى الحِبالِ ؟ ألا قاتَلْتُمْ فمُتُّم كِراماً ؟

فَما نَبَّهها إلى قَوْلِها إلّا صَوْتُ الرَّسولِ مِنَ ٱلْبَيْتِ ناهِراً :

ـ يا سَوْدَةُ ! أتُفضِّلين عَدوَّ اللهِ على اللهِ وَرَسولِهِ ؟

فَقالَتْ ، وَالنَّدَمُ يَعْقِدُ لِسانَها :

ـ وَالّذي بَعَثَكَ بالْحَقّ ، ما مَلَكْتُ نَفْسي ، حِيْنَ رَأَيْتُ هذا الرَّجُلَ الكَريمَ ، مجموعةً يَداهُ إلى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ ... ألَيْسَ ٱلْقَتْلُ خَيْراً لَهْ مِنَ الأَسْرِ ؟

الرَّسولُ في قَلَقٍ علىٰ عَمّـهِ العَبَّاسِ

حينَ كانَ الأُسارىٰ مَشْدُودينَ في القُيودِ ، باتَ الرَّسولُ ساهِراً ، فَقالَ لَهُ أَصْحابُهُ :

ـ يا رَسولَ اللهِ ! مالكَ لا تَنامُ ؟

ـ إني أَسْمعُ تَوُجُّعَ عَمّي العَبَّاس في قُيودِهِ ، فَيمْنَعُني ذٰلِكَ مِنَ النَّوْمِ .

فَقاموا إلى الْعَبَّاسِ فَفَكُّوا قُيودَهُ ، وَنامَ الرَّسُولُ .

وَكانَ الْعَبَّاسُ مِمَّنْ خَرجَ مَعَ ٱلْمُشْرِكينَ عَلى كُرْهٍ مِنْه إلى قِتالِ ٱلْمُسْلِمينَ . وَفي ٱلمعْرَكَةِ انْقَضَّ عَلَيْهِ أَبو اليَسْر ، وأَسَره . وَكانَ العَبَّاسُ رَجُلاً جَسيماً ، ضَخمَ البُنْيَةِ ، فَسأَلَ الرَّسولُ أبا اليَسْرِ :

ـ كيفَ أَسرتَ العَبَّاسَ ؟

ـ يا رَسولَ اللهِ ! أَعانَني عَلَيْهِ رَجلٌ ما رَأَيْتُهُ قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلْيوم وَلا بَعْدَهُ .

ـ لَقَدْ أَعانكَ عَلَيْهِ مَلَكٌ كَريمٌ !

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ الرَّسولُ إِلى عَمِّهِ ، وَقالَ لَهُ :

ـ يا عَبَّاسُ ! إِفْدِ نفسَك وابنَ أَخيكَ ، فَإِنَّكَ ذو مالٍ .

فَقالَ :

ـ يا رَسولَ اللهِ ! إِني كُنْتُ مُسْلِماً ، وَلٰكِنَّ القَوْمَ أَخْرَجوني مَعَهُمْ بِالإِكْراهِ .

ـ اللهُ أَعْلَمُ بإِسْلامِك . إِنْ يَكُنْ ما تَذْكُرُ حَقّاً فَاللهُ يَجْزيكَ بِهِ . أَمّا ظاهِرُ أَمْرِكَ فَقَدْ

كُنْتَ عَدوّاً عَلَيْنا . فافْدِ نَفْسَكَ !

ــ إِنَّني رَجُلٌ لَيس لي مالٌ .

ــ وَأَيْنَ الْمالُ الّذي أَمَّنته بِمَكَّةَ ، حِينَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ ، عِنْدَ زَوْجَتِكَ أُمِّ الفَضْل ؟

ــ والّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، مـــا عَلِم هذا أَحدٌ غَيْري ... وَإِنّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ رسولُ اللهِ .

وَفدى العبّاسُ نفسَه وابنَ أَخيـهِ بِذلكَ المالِ .

مكةُ في مأتمٍ

كانَ أَوَّلَ مَنْ قَدمَ مَكَّةَ ، بَعْدَ مُصابِ قُرَيْشٍ ، الحيسُمانُ الخُزاعيّ ، وَقَـدْ دَخَلَها ، وَهُوَ شاقٌّ قميصَه ، ناثِرٌ التُّرابَ على رَأْسِهِ ، فَسأَلوهُ :

ــ وَيْحَك ، مَا وراءَكَ ؟

ـ قُتِلَ عُتبةُ بنُ رَبيعَة ، وَشَيْبَةُ بنُ رَبيعة ، وَأَبو جَهْلٍ ، وأُميّـــةُ بنُ خَلَفٍ ، وَسِواهُمْ مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ .

وَإِنَّهُ وَهُوَ يُعَدِّد أسماء هؤُلاء الأَشراف ، قال صفوانُ بنُ أُمَيّة ، وهو قاعِدٌ :

ـ واللهِ ، إنْ كانَ هذا عاقِلاً فَاسْأَلُوهُ عَنّي !

قَالوا :

ـ وَما فَعَلَ صَفْوانُ بنُ أُمية ؟

ـ هُو ذلكَ جالسٌ وَحْدَهُ . وَقَدْ ، وَاللهِ ، رَأَيتُ أباهُ وأخاهُ حِينَ قُتِلا .

وَهُنا ثارَتِ الضَّجَّةُ ، وَعلا النَّحيبُ وَالْبُكاءُ ، وَتَجاوَبَت الأَصْواتُ في كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ مَكَّةَ .

وَلمّا انْتَهى الْخَبَرُ إلى عاتِكة أُخْتِ الْعَبّاسِ ، وَصاحِبةِ الرُّؤيا الْفَظيعَةِ قالَتْ :

ــ إذاً ، قُضِيَ الأَمْرُ . هٰــذا تَفْسيرُ رُؤياكِ يا عاتِكَةُ ! إنَّ الصَّخْرَةَ قَدْ انْصَبَّتْ عَلَيْهِمْ ، ولَمْ تَتْرُكْ بَيْتاً مِنْ بُيوتِ مَكَّةَ إلّا أَصابَتْه .

وَفي وَسطِ هٰذا الْبُكاء وَالنُّواحِ صاحَ الْمُنادي :

ــ كُفُّوا ، يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، عَنِ النُّواحِ ، فَيَبْلُغَ مُحَمَّداً وأَصحابَه ، فَيَشْمَتوا بِكُــمْ . ولا تَلِجُّوا في شَأْنِ أَسْراكُم ، حَتَّى لا يُبالِغَ محمّدٌ في الفِداء .

فأَثَّر هٰـذا النِّداء في النّفوسِ ، وأَمْسى الباكي لا يَبْكي إلّا هادئاً ، والنائحُ لا ينوحُ إلّا صامتاً .

وَكانَ الأَسودُ بنُ المطَّلبِ وَاحداً مِنَ الآباءِ الْمَفْجوعينَ ، إذْ أُصيبَ لَهُ ثلاثةٌ مِنْ أَوْلادِهِ ، وَكانَ يرْغَبُ أَنْ يَسْتَرسِلَ في البُكاءِ ، ولَكَّنْ ، كانَ يمنَعُهُ عَنْهُ ذٰلِكَ النِّداءُ . وَبيْنَما هُوَ يُرسِلُ دُموعَه الصامِتَة ، إذْ سَمِعَ صوتَ نائحةٍ في اللَّيلِ ، فقالَ لِغلامِهِ :

ـ أُنظُرْ ! هَلْ سَمحوا بالنَّحيبِ على ٱلْقَتْلى ؟ هَلْ بَكَتْ قريشٌ على مَوْتاها ؟ لَعَلّي أَبْكي على أَوْلادي ، فَإنَّ جَوْفي قَدِ احْتَرَق ، وَلا يَشْفيني غيرُ ٱلْبُكاءِ .

فَذَهَبَ ٱلْغُلامُ ، ثُمَّ رَجع إليْهِ ، وَقالَ :

ـ إنَّهُمْ لا يَبْكونَ ٱلْقَتْلَى . وإنَّما هِيَ امْرأَةٌ

تبْكِي عَلى جَمَلٍ لهـا قَدْ فَقَدَتْه .

فَصاحَ الْأَسْوَدُ ، وَهُوَ يَكادُ يَتَفَجَّرُ أَلماً :

ـــ يا ويْحَهُمْ ! أَيَبْكونَ على الجِمالِ ، وَلَا نَبْكِي على الرِّجالِ ؟

مَوتُ أَبي لَهَبٍ

لَمْ يَخْرُجْ أبو لَهَبٍ مِنْ مَكَّةَ ، فِيمَنْ خَرَجَ مِنْ قَوْمِهِ إلى الْمَعْرَكَةِ ، وَإِنَّما بَعَثَ مَكانَه أَحَدَ رِجالِهِ ، كما صَنَعَ الكثيرونَ مِمَّنْ تَخَلَّفُوا . وَلَمّا جاءَ الْخَبَرُ بِمُصابِ أَهْلِ بَدْرٍ مِنْ قُرَيْشٍ أَقْبَلَ أبو لَهَبٍ ، يجرُّ رِجْلَيْهِ ، حَتَّى جَلَسَ في مَجْلِسِهِ ، وَبَيْنَما هُوَ جالِسٌ ، قالَ النَّاسُ :

ـــ هٰذا أبو سُفيانَ قَدْ قَدِمَ بالقافِلَةِ .

فناداهُ أَبو لَهَبٍ :

ــ هَلُمَّ أَليَّ يا بنَ أَخي ! فإِنَّ عِنْدَكَ الْخَبَرَ اليقينَ .

قالَ أبو سفيانَ :

ــ لا شيْء واللهِ ... ما كانَ إِلّا أَنْ لقِيناهُمْ ، حتَّى انْهَزَمْنا ، وأَبَحْناهُمْ أَكْتافَنَا ، يَقْتُلونَ ، وَيأْسِرون كَيْفَ شاءوا . وَمَعَ ذٰلِكَ ، ما لمْتُ النَّاسَ على ما صَنَعوا ، لَقِينا رِجالاً بِيضاً على خَيْلٍ بُلْقٍ بَيْنَ السَّماء والأَرْضِ ، ما تُبْقِي عَلى شَيْءٍ ، وَلا يَقِفُ في وَجْهِها شَيْء .

فَصاحَ أبو رافعٍ ــ وَكانَ مُسلِماً يَكْتُمُ إِسْلامَهُ :

ــ تِلْكَ ، واللهِ ، المَلائِكَةُ !

فَرَفَعَ أبو لَهَبٍ يَـدَهُ ، فَضَرَبَ وَجْـهَ أبي رافِعٍ ضَرْبـةً شَديدَةً ، فَنَهَضَ إِلَيْهِ أبو رافعٍ لِيَضْرِبَـهُ ، فاحْتَمَلهُ أَبو لَهَبٍ ، وَضَرَبَ بِـهِ الأَرضَ ، ثُمَّ بَرَكَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ ، فَقَامَتْ أُمُّ الْفَضْلِ — زَوْجَةُ الْعَبَّاسِ — إلى عَمودٍ مِنْ عَمَدِ الْبَيْتِ ، فَأَخَذَتْهُ ، فَضَرَبَتْ بِهِ أَبا لَهَبٍ ، فَفَلَقَتْ رَأْسَهُ ، وَهِيَ تَقولُ :

— أَتَسْتَضْعِفُه لِغِيابِ سَيِّده الْعَبَّاسِ عَنْهُ ؟

وَما هِيَ إِلّا سَبعُ ليالٍ ، بَعْدَ هٰذهِ الضَّرْبَةِ ، حَتَّى رَماهُ اللهُ بِقَرْحةٍ قاتِلَةٍ خَرَجَتْ في بَدَنِهِ ، فقتلَتْهُ . وَبَعْدَ مَوْتِـهِ ، تَرَكَهُ وَلَداهُ لَيْلَتينِ ، لا يَدْفِنانِه ، حَتَّى أَنْتَنَ في بَيْتِهِ ، خَشْيَةَ أَنْ

تَكُونَ هٰذهِ القرحةُ هِيَ الطَّاعُونُ ، حَتَّى قالَ لَهما رَجلٌ مِنْ قُرَيْشٍ :

ــ وَيْحَكُما ! ألا تَسْتَحْيِيانِ ؟ إنَّ أَباكُما قَدْ أَنْتن في بَيْتِهِ ، وَأَنْتُما لا تَدْفِنانِهِ ؟

فَقالا :

ــ نَخْشى هٰذِهِ ٱلْقَرحَةَ على أَنفُسِنا .

ــ إنطلِقا ، وَأَنا مَعَكُما .

فَما غَسَّلوهُ إلّا قَذْفاً بالَماءِ عَلَيْهِ مِنْ بَعيدٍ ، دونَ أنْ يَمسُّوا بَدَنَهُ ، وَاحْتملوهُ ، فَدَفَنوه بأَعْلَى مَكَّةَ على جِدارٍ ، وَقَذَفوا عَلَيْهِ الْحِجارَةَ حتَّى غيَّبوهُ .

وأخيراً ... وَصَلتِ ٱلْقافِلَةُ

أَمّـا ٱلْقافِلَةُ الّتى كانَتْ سَبَباً لِتِلْكَ الْحَرْبِ الْمُفْجِعَةِ ، فَقَدِ اسْتَطاعَ أَبو سُفْيانَ ـ مُنْذُ أَنْ سَمِعَ بِنَبأ خُروجِ الْمُسْلِمينَ إِلَيْها ـ أَنْ يَتَجَنَّبَ طَريقَهم ، وَيَسْلُكَ بها طَريقاً مَأْموناً . وَهُوَ الّذي أَشارَ على قَوْمِهِ بِأَنْ يَرْجِعوا إِلى دِيارِهم ، ولٰكِنَّ عِنادَ أَبي جَهْلٍ وَإِصرارَه على مُقاتَلَةِ الْمُسْلِمينَ ، وكُرْهَه لِمُحَمَّدٍ ودِينِهِ ، جرَّه وَقَوْمَه إِلى ذٰلِكَ الْمَصيرِ .

والآنَ ، مَاذا تُجدي سَلامةُ ٱلْقافِلَةِ والأَموالِ ، وَقَدْ هَلَكَت الرِّجالُ ؟

أَراد أَبو سُفيانَ أَنْ يوزِّعَ ما جاءَ بِهِ مِنْ تِجارَةٍ وَمالٍ على أَصْحابِ المالِ ، لٰكِنَّهُمْ وَقَفوا

صفًّا واحِداً ، وأَبَوا أَنْ يَمُدُّوا بِأَيْدِيهِمْ إِلى شَيْءٍ مِنَ المالِ ، وَقالوا لِأَبي سُفْيانَ ، وَدُموعُهم تَنْهَمِرُ ، وأَلْسِنَتُهم تُنذِرُ :

ــ إِحْفَظْ هٰذهِ الأَموالَ عِنْدَكَ ! وَتَصرَّفْ فيها في اَلْيَوْمِ الّذي تَدْعونا فِيهِ إلى الثَّأْرِ والانْتِقامِ . واللهِ ، لَنْ نَتْرُكَ مُحمّداً وأَصحابَه يَبْتَهِجونَ بِهذا النَّصْرِ .

وَاَلْتَفَتَ أَبو سُفْيانَ إِلى اَلْقَوْمِ ، وَقالَ :

ــ أَقْسِموا عَلى الثَّأْرِ !

فَأَقْسَموا بِسُيوفِهِمْ المُثَلَّمَةِ على أَنْ يَطْلُبوا ثأْرَهُمْ مِنْ مُحَمَّدٍ وأَصْحابِهِ في يَوْمٍ قَريبٍ .

وَكانَ ذٰلِكَ اليومُ يومَ « أُحدٍ » وَما هُوَ بِبَعيدٍ .

الدَّرْسُ الأَكْبَرُ

هٰكذا انْتَهى أَوَّلُ لِقـاءٍ كَبِيرٍ بَيْنَ الْمُسْلِمينَ وَمُشْرِكي قُرَيْشٍ ، تَثبتَ فيــهِ نَصْرُ الْمُسْلِمينَ – بِرَغْمِ قِلَّتِهِم – بِفَضْلِ إِيمانِهِمْ ، وَوَحْدَةِ غَرَضِهِمْ ، وَحِكْمَةِ تصرُّفِهِمْ ، وَلا شَكَّ أَنَّ الْقائِدَ الرَّسولَ ، كانَ ، مَعَ زَعامتِه الرُّوحيَّةِ ، يَتَمَتَّعُ بِصِفاتٍ خارِقَةٍ تَجْعَلُهُ في الْمَقامِ الأَوَّلِ مَعَ الْقادَةِ العِظامِ .

كانَ الرَّسولُ مِثالَ الْعَزْمِ في الإِقْدامِ ، وَاثِقاً بِالنَّصْرِ . يَقْدِرُ على تَوْجيهِ أَصْحابِهِ أَنَّى يَشاءُ . وَلٰكِنَّهُ ، مَعَ هٰــذا ، لا يَتْرُكُ مَشورَتَهم ، والرُّجوعَ إِلى ما يَرونه إِذا رآهُ حَقّـا ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَجُلاً مُسَيْطِراً ، وَلا مُتَكَبِّراً .



— أَتَسْتَضْعِفُهُ لِغيابِ سَيِّدِهِ الْعَبّاسُ عنه ؟ (ص ٦٨) .

وَكانَ الرَّسولُ بَعيداً عَنْ شَهْوَةِ الْحَرْبِ ، أَكْرَهُ ما يَكْرَهُهُ سَفْكُ الدِّماءِ بلا حَقٍّ ، وَلا رَوِيَّةٍ . وإِنَّ في حِرْصِهِ على نَجاةِ الأُسارَى مِنَ ٱلْقَتْلِ ـ حينَ كانَ يَهُمُّ أَصحابُه بقتلِهِم ـ شَهادَةً على تَجَرُّدِهِ مِنَ ٱلْقَسْوَةِ وَٱلحِقْدِ على أَعْدائِهِ الّذينَ كانوا لا يَجِدُونَ شِفاءَهُمْ إلا بسَفْكِ دَمِهِ . وَمِثْلُ هٰذا ٱلْعَفْوِ الّذي أبداه ، والتَّسامُحِ الّذي تحلَّى بِـهِ ، هُوَ الّذي أَلَّف قُلوبَ الأَعداءِ عَلَيْهِ ، وَتركَ مِنْ أَعـداءِ ٱلْأَمسِ أَصدقاءَ ٱلْغَدِ ، وَمِنْ عَبَدَةِ الأَوْثانِ رِجالاً مُؤْمنينَ باللهِ الواحِدِ الّذي لا إِلٰهَ غَيْرُه ، كَما جَعلَ مِنْ هٰـذِهِ القُوَّةِ الصَّحْراويّةِ التي كانَتْ تَعيشُ على ٱلْغزْوِ وَالسَّلْبِ ، وَتَتَمَسَّكُ بِعصَبيّتِها القَبليَّةِ وَٱلْوَثَنيَّةِ ،

حكايات شهرزاد

قصص للأطفال تصدرها دار شهرزاد

شهرزاد أجمل وأذكى فتاة عرفتها القصة العربية في عصر ألف ليلة وليلة. وحكايات دار شهرزاد أجمل حكايات تصلح للأطفال لأنها مستقاة من عالمهم: تغذي خيالهم وتربي فيهم روح المرح والمغامرة.

صدر من مجموعة حكايات شهرزاد:

١ - الدجاجة البيضاء
٢ - الأمير بهلول
٣ - مغامرات بشوش
٤ - الغابة المسحورة
٥ - هبلان
٦ - هزيمة التنين
٧ - الأرنب مامبو
٨ - مسرور ونبتة الحياة
٩ - جوقة الحمار
١٠ - أميرة النحل
١١ - المغامرون
١٢ - رهوان القنوع
١٣ - الهر الذكي
١٤ - بنانه
١٥ - الأخوة الماهرون

قوةً جَمَعَها دِينٌ واحِدٌ ، ورَسولٌ واحِدٌ ، تَمَكَّنَتْ ، بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، مِنْ أَنْ تَحْمِلَ شِعارَ السَّلامِ ، مَعَ الْحُسامِ ، إلى أقطـــارٍ رَحيبَةٍ مِنَ الأَرْضِ ، لِتَنْشُرَ فيها رايَةَ الإِسْلامِ .

حَقًّا ، لَقَدْ كانَ يومُ بَدْرٍ ، فاتِحَةَ أَيَّامِ النَّصْرِ .

الأساطير

١ - شيخ الجبل
٢ - سلطان باتان
٣ - تماري والأوزات السبع
٤ - الفانوس السحري
٥ - بلاد السلام
٦ - تفاحة الذهب
٧ - خوانو الشجاع
٨ - ين سو
٩ - سر الغابة
١٠ - الهندي النحات

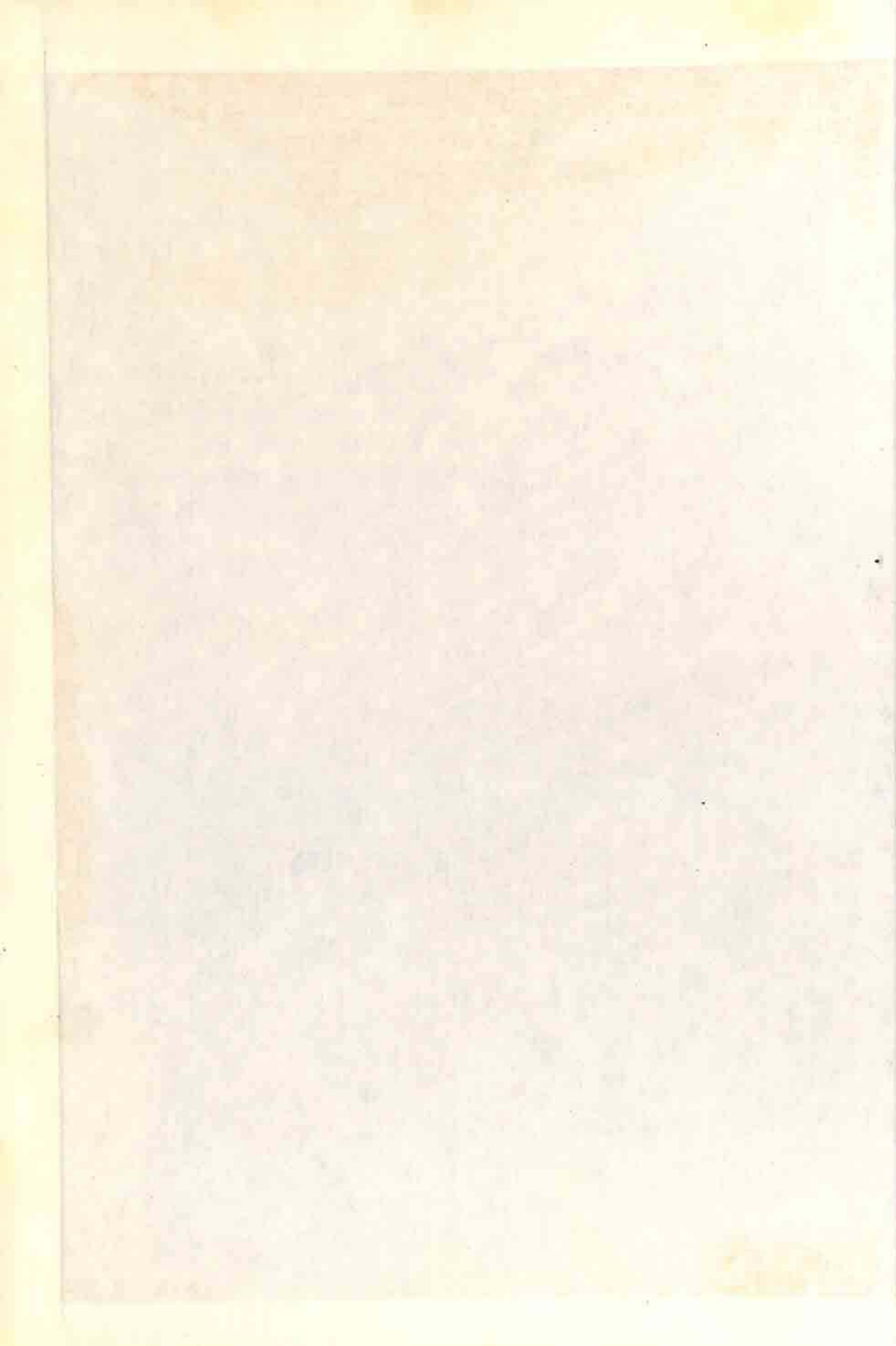
حياة الإنسان

١ - في قبائل الهنود الحمر
٢ - في الصحاري
٣ - في منابت الأرز
٤ - في القطب الشمالي
٥ - في المدن
٦ - على شواطىء البحار
٧ - في الجبال
٨ - في الأدغال

حكايات جدتي

قصص للأطفال تصدرها دار سهرزاد

١ - ليلى ذات القبعة الحمراء
٢ - المعزاة وصغارها
٣ - الدببة الثلاثة
٤ - فتاة الغابة المسحورة
٥ - القزم الفهيم
٦ - انتصار الحمار
٧ - المرآة السحرية
٨ - أم الرماد
٩ - الأمير السعيد
١٠ - الدب الوفي
١١ - بيت الساحرة
١٢ - حكاية تمثال
١٣ - جلد الحمار
١٤ - كوكو ذو الضفيرة
١٥ - الزهرة المسحورة



قصص ألف ليلة وليلة

١ - الأميرة والفهد
٢ - القصر المسحور
٣ - جزيرة القرود
٤ - نهاية شيخ البحر
٥ - مصباح علاء الدين
٦ - علي بابا واللصوص
٧ - الياقوتة العجيبة
٨ - الحصان الطائر
٩ - معروف الإسكافي
١٠ - غدر أبي قير
١١ - انتصار أبي صير
١٢ - القاضي الصغير

أيام العرب

سلسلة كتب جديدة للفتيات والفتيان
تصور أهم معارك العرب في الجاهلية والإسلام

١- يوم البسوس- الجزء الأول
٢- يوم البسوس- الجزء الثاني
٣- يوم داحس والغبراء
٤- يوم بدر
٥- يوم أحد
٦- يوم فتح مكة
٧- يوم حنين
٨- أيام العراق
٩- يوم القادسية
١٠- يوم اليرموك

دار العلم للملايين

مؤسسة نوفل